

فوق تل ترابي على ضفة نهر الفرات اليمني، وعلى بعد /٦٠/ كيلو متراً جنوب شرقي مدينة دير الزور؛ نامت مدينة (تيرقا) منذ أربعة آلاف عام، وبنت حضارة عربية نزحت من الجزيرة العربية منذ نزحت قبيلة (خانا) العمورية. وأصبح اسمها في العصر الإسلامي (العُشارة).

وأصبحت هذه القبيلة مملكة بعد أن هدم حمورابي مدينة (ماري) حيث برز اسم (تيرقا) في المنطقة، فأقامت علاقات وطيدة مع المدن السورية الأخرى، وحكمها عدد من الملوك الكاشيّين بعد زوال مملكة بابل، ثم تبدّل اسمها في العهد الآشوري إلى (سيرقو) وصارت عاصمة لمقاطعة آشورية تدعى (لاقي)، عثرت البعثتان الفرنسية عام ١٩٢٣ والأمريكية منذ عام ١٩٧٦ على كثير من اللُقى الأثرية واللوحات المسمارية والأسلحة البرونزية، والتماثيل الفخارية، حيث عرضت في متحفي دير الزور وحلب.

كانت (العُشارة) آهلة بالسكان في عصري الفاطميين والأيوبيين، لكنها تردّت في العصر العثماني فأصبحت تابعة لـ (الرحبة) التي انقلب اسمها إلى (المياذين).

وكما اشتهرت برجالها أيام الملك (كبري داغان) منذ خمسة آلاف سنة تقريباً، فقد اشتهرت برجالاتها منذ ألف عام. كل واحد منهم يعرف بـ (العُشاري) نسبة إلى بلدة (العشارة) التي بدأ دورها الثقافي يتقلص في القرن الحادي عشر الهجري، إذ نزح معظم أهلها إلى بغداد ومناطق أخرى نتيجة هجمات الأعراب العشوائية، واستباحتهم ونهبهم للقرى والمدن الفراتية.

وقد تحدث عن العشارة خلال تلك الفترة المضطربة من الفوضى السيد نعمان

الآلوسي في كتابه (حديقة الورد) إذ نوّه عن أثر هجمات الأعراب على هذه البلدة الوادعة، مما دفع العلماء والشعراء للهجرة عنها فقال: (إنها لم تزل مسكونة، إلاّ أن الدهر قد أنكحها الخراب فافترشها، ويكاد يولدها الغربان والبوم، وأغرى بها ظلم الأعراب فافترسها، ويوشك أن لا يبقى منها إلاّ الأطلال والرسوم).

علماء عشاريون

لقد برزت أسماء لامعة في كتب التراجم، تظهر التقدم العلمي والثقافي الذي بلغتهما هذه البلدة منذ عصر التابعين، ولمدة ألف عام.

من هؤلاء العلماء والأدباء:

محمد بن علي العُشاري: ذكره السمعاني في مادة (العشاري) الذي ولد سنة ٣٦٦هـ وتوفي سنة ٤٥١هـ وقد أخذ عن علماء عصره وأخذ عنه علماء كبار.

علاء الدين علي بن عبد الله العشاري.

وأحمد بن أحمد بن ظاهر العشاري الشافعي العراقي، وعمر زامل العشاري، وعبد اللطيف عبد الرحمن الشافعي العشاري البغدادي، المدرّس في مدرستي العمرية والزهيدية ببغداد والمتوفى سنة ١١٨٥هـ - ١٧٧١م.

ومنهم الشاعر والأديب أبو عبد الله (حسين بن علي العشاري البغدادي الشافعي) الذي كان عالماً علماً، والذي لا نكاد نجد لغيره من العشاريين أثراً مخطوطاً، ولم يطبع لغيره ديوان محقق بعناية علماء أجلاّء.

من هو العشاري؟

قليلة هي المراجع والمصادر التي تحدثت عن هذا الأديب الذي ترك لنا الكثير من الشعر الذي تحدّث في أغلبه عن حياته الطويلة، ومعاناته اليومية، وما آل إليه أمره في بغداد من سوء حال، بعد أن كان آباؤه في بحبوحة عيش قبل نزولهم فيها، كما أن المعلومات عن أسرته قليلة أيضاً، لكن هذا القليل يحدثنا عن هويته وأرومته، فهو عربي النسب، وترجع جذور قبيلته إلى قبيلة (مذحج) القحطانية، وقد نزحت عائلته لظروف قاهرة قبيل ولادته، حيث ولد الشاعر (حسين بن علي العشاري في بغداد سنة ١١٥٠هـ ١٧٣٧م)، وكان أبوه الشيخ علي بن حسن (ملاّ) ممّن يعلم العلوم الدينية.

وقد شغف ولده حسين بالعلم منذ صغره، فقد أخذ عن أبيه وعن علماء بغداد، وأولع بالنحو واللغة والأدب، ثم انكبَّ على الفقه فقرأ كثيراً عن فقه الإمام الشافعي، مما جعل معاصريه يطلقون عليه لقب (الشافعي الصغير) وذلك لسعة إطلاعه وغوصه في معضلات الفقه الشافعي، كما قال الآلوسي.

وأولع بالخط العربي، فنبع في أنواعه، ورسمه، فنسخ عدداً من كتب اللغة والأدب والمنطق والفقه وغيرها، وبهذا يكون خطاطاً ووراقاً، فهو يقتات من الوراقة، ويعلو كعبه في الخط فيكون من كبار الخطاطين في بغداد، الذي جوّدوا الخطَّ وحسّنوه، وخطّ عدداً من الدواوين الشعرية التي لا تزال موجودة في خزائن الكتب الخاصة والعامة في بغداد وغيرها، حتى أن الآلوسي رغم جلالة قدره قد اعتبره ممن سبق غيره في هذا الفن فقال:

(كــان له خط يعجز ابن مقلة) رغم أنه يعاني من ضعف في إحدى عينيه لأنها كانت كليلة.

لقــد نـبغ العشاري ففاق أقرانه، لن معاصــريه حسدوه، وحاولوا مراراً النيل منه، وهــدم أركانــه، بل كان من سوء طالعه عند المؤرخيــن والمترجمين أنهم أخطأوا في نسبة مــن ينتســب لــ (العشارة) بل ويجهلون حتى موقعها الجغرافي.

فهل كان حظه عاثراً إلى هذه الدرجة، أم أنه عاش مغموراً بين أهل الرفاه والنعمة؟

بعض شيوخه

رغم قلّة المراجع عن هذا الشاعر، إلاّ أننا نستطيع أن نعرف بعض شيوخه وأساتذته الذين أخذ عنهم، وصقل مواهبه بسببهم.

أخــذ عــن عالم العراق وأديبه الشيخ جمــال الديــن عــبد الله بن حسين السويدي البغدادي، المتوفى سنة (١١٧٤هــ - ١٧٦٠ م) الــذي تصدّر في داره للتدريس، كما درّس في حضرة الإمام أبي حنيفة، ومقام الشيخ عبد القــادر الجيلانــي، وفــي المدرسة المرجانية (جامع مرجان) كما أخذ العلم عن ابنه العلامة الشــيخ عــبد الرحمن السويدي المتوفى سنة (١٢٠٠هــــ - ١٧٨٥م) وكان العشاري أكبر مــنه بأكــثر من عشر سنين، حيث غلب عليه الفقه حتى كان يسمى: الشافعي الصغير، ففاق معاصرين، وسبق أقرانه.

الشاعر البائس

تحدث العشاري في مقدمة ديوانه عن الحالة البائسة التي وصل لها، فقال:

(وإلى الله المشتكى من زمان، إذا أمر بنائية حرّض، وإذا نظر إلى كريم أعرض، وإذا جرح ذفّف، وإذا قتل أسرف، ينظر إليّ شزراً، وينفق عليّ نزراً، ويرهقني من أمري عُسراً).

ونــتيجة لهــذا الضيق الذي لا يتوقع بعــده فرجاً، سئم الحياة في بغداد، لأنه عانى فيهــا الفقر والبؤس، فاستشهد بقول الطغرائي في مقدمة ديوانه:

فيم الإقامة في الزوراء لا سكني
بهــا ولا ناقــتي فيها ولا جملي

وأنّى لــي بالشــخوص عــن مزورّة الأحــداق، سيئة الأخلاق، مُرّة المذاق، العراق، ومــا أدراك مــا العــراق، أهــلها أهــل نفاق وشقاق..

ثم أنشد يقول:

مــا المجــد في الكرخ مقيماً ولا
طــوقُ العُــلى فــي جيد بغداد

لقد عاش في بؤس وفقر مدقع، وعبّر عن ذلك فيما نظمه من شعر حواه ديوانه، فبثّ أحــزانه فــي قصائده الدينية والأدبية، وعاش عيشــة الكفاف، دون أن تكون له موارد ثابتة، مما جعله يلجأ إلى تعليم الأطفال مبادئ القرآن والعــربية والحديث، ليقتات بما تدرّه عليه هذه المهنة (المُلاّ).

وقــد وصف حالته البائسة في شعره فقال:

ومــا فيك غير الفقر عيب وإنما
يُعاب الفتى لؤماً ولو كان ذا جدِّ
ولا شــك أن المــال غاد ورائح
وأن فخار المال من شيمة الوغد

لقــد أبى إبــاؤه أن يسأل أحداً، فانكب عــلى نســخ الكتب (مهنة الوراقة) رغم فقده البصر بإحدى عينيه، ففي اليوم الذي لا ينسخ

فيــه لا يكاد يشبع بطنه، فقد شكى برداً داهمه وجعله يتوقف عن نسخ الكتب:

فجاءنـــا بـــردٌ شـــديدٌ قــرُّ
مـــا لِفـتى مـــن بأســه مفــرُّ
أشــلّ مــنّا الكــف والأصــابعا
وأخــرس الألســـنة المصـــاقِعا
ثــم انقضــت أيامــه المُتَّســقه
ومــا كتبــنا مــنه خمس ورقه

ونتيجة لهذا الفقر الذي ألزمه الأرض وجعلــه يستفّ التراب، راح يستغيث بالصحابة والصــالحين عسى أن يُخرجوه من تلك الهوّة الــتي ســقط فيهــا ولــم ينهض، فقد استغاث بالصــحابي ســلمان الفارســي رضي الله عنه فقال:

وامـــدد بفضلك أطفالي وكن لهم
دخـــراً وحصــناً بدنيانا وأُخراها
وقـــد ســألتك يا كنز الفقير ولم
أدرِ لغيــرك يا مولى الندى فاها

بــل استغاث بأمير المؤمنين علي بن أبــي طــالب رضـــي الله عنه، وشكى في تلك الاستغاثة ما ألمَّ به من كرب وضيق، وما حاق به من فقر وحرمان:

حططــت بــباب عــزّك يــا ملاذي
رحـــال الهَــمِّ والكـــرب الشـــديد
جفـــاني الأهـــل والإخـــوان طُـــراً
وأعـــرض صحابي وعصى حفيدي
ومـــالي عـــند بـــابك مـــن شـــفيع
ســـوى المســـموم والـــبطل الشهيد
بجـــاهك يُذهـــب الـــرحمان كـــربي
فـــإن الحـــبل ضـــاق عـــلى الوريد

مدحَ وذمّ

حين نستعرض ديوان العُشاري، نجده كغيــره مــن الشــعراء يمــدح ويذم، ويهجو ويتغزل، ويحن إلى وطنه، ويبكي على الأطلال، ثــم يــنعي مصائب عصره. ومدح واليين من ولاة بغداد هما: سليمان باشا الذي تولى ولاية بغــداد ســنة (١١٦٢هــ - ١٧٤٩م) وتوفي سنة (١١٧٥هــ - ١٧٦١م) عن ٦٦ سنة.

وعمــر باشـــا الذي تولى ولاية بغداد ســنة (١١٧٧هـــ - ١٧٦٣م) وعزل لسوء أخلاقه وقتل سنة (١١٨٩هــ - ١٧٧٥م).

لكــن مدح العُشاري لهذين الواليين لم يكــن للتكسّب، بل لما أسدياه من أعمال جليلة، كبــناء مــرقد لأحد الأولياء، أو القضاء على بعــض الفــتن، وهذا المديح لا يزيد عن أبيات معـــدودة، لأن تصـــوفه وانتســـابه لـــلطريقة الصـــوفية العيدروســـية، جعلــه يمدح بعض وجهـــاء العائلات والأُسر بما يزيد عمَّا مدح به هذين الواليين.

والذي يبدو لنا من خلال قراءة ديوانه أنـــه كان يمتاز بنفس أبيَّة ترفض الذلَّ وتأبى الضــيم والقهر، فلم يرد عنه تردد على حاكم، أو تقــرّب مـــن مســـؤول في الحكم، بل نرى العكــس في ذلك، فقد كان يذم بعضهم ويشكو ظــلمهم، الأمــر الــذي جعله يعيش بعيداً عن وظائف الدولة، ويفقد حظوتها.

إنه يشكو في مقدمة ديوانه عن سوء تصــرف المسؤولين في زمانه فيقول: ".. مع أني في زمان تباً له وتب، ما أحقّه أن يرى أبا لهــب، قــد أصلى أهله بنار ذات لهب، قدّم كل ركيــك ضعيف، ورأس كل دني سخيف، وأذلّ كل سريّ شريف".

ويصف العشاري حكّام زمانه بالقسوة، وينعتهم بأقبح النعوت، حتى يقول فيهم: فتية مردة، كأنهم خنازير أو قردة، قلوبهم طاغية، وأيديهم باغية، وألسنتهم لاغية.. جماعة كبيرها صغير، ورئيسها حقير ودنيُّها أمير، وشريفها أسير.

حقاً لقد كان الشاعر العشاري ناقماً على ذوي الجاه والحكم والسلطان في بغداد، ولكنه تقرب إلى بعض الشخصيات التي كان دورها بارزاً في الحكم مثل:

عبد الله الأعرجي الحسيني المعروف بالفخري، الذي كان كاتباً لديوان الإنشاء في بغداد، فنال الفخريَّ شيءٌ من مديحه والثناء عليه. فلما مات الفخري وتولى منصبه ولده من بعد، مدحه العشاري لطيب أخلاقه وحسن معاشرته.

وكانت تربطه صداقة وثيقة مع أسرة عبد الجليل بك أحد أُمراء الحلّة في عصره، ومع نائب الفتوى في الحلّة صديقه الشيخ عبد الله بن عيسى.

ومع آل الشاوي أمراء قبيلة العبيد، وشيوخ البادية في وسط العراق.

وحينما قتل عمر باشا والي بغداد الأمير عبد الله الشاوي غدراً وقام أبناؤه للأخذ بثأره؛ نظم العشاري قصيدة ذم فيها الوالي الذي مدحه بالأمس فقال:

مصائب سوء وافت الناس بغتةً
فضلُّوا ولم يدروا الضلال من الرشد

وخطب جليل أدهش العقل رزؤه
أتانا على كُره وجاء بلا وعد

لقد أظلمت دار السلام لفقده
وأصبح منها الشمل منتثر العقد

ويصب العشاري نار غضبه على هذا الوالي الظالم فيقول:

تلاطم بحر الجور بعد اغتياله
وضاق بنا من بعده المنزل الرحب

إذا الأسد الوردي اصبح هالكاً
لعمرك فليحكم بما شاءه الكلب

لقد نظم العشاري هذه القصيدة الجريئة، وكان يقيم في بغداد التي يحكمها عمر باشا، وقد نال هذا الوالي بعض ثناء وإطراء العشاري من قبل.

وكانت تربط العشاري بأمراء وشرفاء مكة روابط وثيقة، تنم عن حبهم للأدب والشعر، وحبه لآل بيت رسول الله ﷺ.

آثاره

كتب العشاري عدداً من المؤلفات، لكن اشهرها كان ديوانه المطبوع، حيث تفنَّن في القصائد التي أعجبته من نظم غيره فقام بتشطيرها وتخميسها وتشجيرها وتعشيرها.

والمتتبع لشعر العشاري يجد أن شعره في الثناء والمديح قد بلغ أكثر من أربع أخماس ديوانه، وذلك في مدحه آل الشاوي، وآل الفخري، وغيرهم.

ونستطيع أن نضيف إلى مؤلفاته شعراً ونثراً تلك المجموعة من الكتب التي خطها، إذ كان خطاطاً بارعاً بفنون الخط وقواعده، وقد اعتبره معاصروه نداً لابن مقلة.

من تلك الكتب التي استطعنا أن نحصل عليها مخطوطة، أو نحصل على أسمائها في بطون الكتب ما يلي:

١ - (حزب الأوقات وورد الساعات)

جمع فيه جملة من الأدعية والأذكار والأحاديث وبعض القصائد، وقد أملاه ببغداد في الثاني عشر من شهر ذي القعدة سنة ١١٨٤هـ وسمّاه عمر رضا كحالة (الأوراد).

٢ - (ديوان شعر).

قال عنه الزركلي: فيه الغث والسمين، وبيَّن إسماعيل البغدادي أن شعره قد تناول مدائح النبي ﷺ والصحابة وآل البيت. وبعد تحقيق المخطوطة من الدكتور عمد عبد السلام رؤوف ووليد الأعظمي، وساعدت جامعة بغداد على نشره عام ١٩٧٧ نجد أنه مدح ولاة بغداد ووجهاء قبائل وشخصيات أخرى.

٣- (الأبحاث الرفيعة في الرد على الشيعة).

فرغ من تأليفه سنة ١١٩٤هـ وهو يبحث في الخلافة والإمامة، وسمّاه الأستاذ محمد بهجت الأثري باسم (رسالة من مباحث الإمامة).

٤- (حاشية على شرح الحضرمية) مخطوط.

وهي في الفقه الشافعي، كتبها على شرح الحضرمية لابن حجر الهيتمي.

٥- (تعليقات على جمع الجوامع) مخطوط.

وقد كتبه العشاري حاشية في أصول الفقه، وهي من تأليف عبد الوهاب السبكي المتوفى سنة (٧٧١هـ).

٦- (تنقيح المديح لصاحب الوجه المليح).

٧- (تخميس البردة).

٨- (مجموعة أدبية).

جمع العشاري هذه المجموعة في جزأين، الأول: رسائل معاصريه. والثاني: جمع فيه جملة من رسائله التي أرسلها إلى شرفاء مكة المعاصرين له، ورسائل في أغراض مختلفة، وتقاريض.

٩- (قصيدة في مدح النبي ﷺ).

وهي قصيدة طويلة كما يقول إسماعيل البغدادي.

١٠- له تعليقات على كثير من كتب النحو، ذكرها البحاثة محمد بهجت الأثري رحمه الله.

ولعل للعشاري غير ما عثر عليه الباحثون، وهذا ما نتمناه لهذا العالم الذي عرفنا عنه الكثير من خلال تحقيق ديوان واحد من مؤلفاته، فكيف لو حققت جميع مؤلفاته، أو عثر له على مخطوطات أخرى.

أواخر حياته

عاش العشاري بين بني جنسه غريباً، ليحافظ على كرامته وطهارة ذيله. لذلك لاقى من الفقر والتناسي والحاجة كثيراً، بل شعر بالذل في بغداد رغم أنها مسقط رأسه، مما جعله يحن إلى مسقط رأس أبيه (العشارة) ذات الذكر الحسن، والخير العميم، والجذور الأصيلة التي لم تلوثها مدنية المدن، ولا تكالب الناس في المدن على الجاه والمال والمنصب الرفيع، فكان يحن إلى بلدة العشارة وأهلها، ويذكر ذلك في شعره:

سقى الله تلك الدار هامية القطر
مدى الدهر ما ناح المطوق والقمري
وعم ديارا قد عفى الآن رسمها
على أنها في الناس طيبة الذكر
وأحيا به روض (العشارة) كلما
تحدر دمع من جفون على صدر
عليها سلام الله ما اخضر مورق
وفاح الشذا من شعبها الطيب الذكر

وضاق العشاري ببغداد ذرعاً، فانتقل منها إلى البصرة ليعمل في التدريس والقضاء، وذلك سنة (١١٩٤هـ - ١٧٨٠م).

وفاته

لم تطل مدة مكثه في البصرة إذ عاجلته المنية فتوفي فيها في أواخر سنة (١١٩٥هـ - ١٧٨٠م).

وهكذا طويت صفحة حياة هذا الشاعر الذي عاش حياته فقيراً بائساً في مسقط رأسه بغداد، تاركاً لنا تراثاً أدبياً مبعثراً لم تتناوله أقلام الباحثين في التحقيق والدراسة إلا قليلاً، فجمعوا تلك النتَف في وريقات قليلة أطلقوا عليها بعد التحقيق (ديوان العُشاري).

رحم الله الشاعر العُشاري في غربته.



ثورة الدجاج المجلد

شعر: د. سعاد الصباح

سأعلن باسم سعادٍ
وهند
ولُبنىً
وباسمِ بتول
سأُعلن باسم ألوف الدَّجاجِ المُجَلَّد..
باسمِ ألوف الدجاج المعلَّب
أنِّي خنقتُكَ تحتَ ضفائري شعْري
وأنّي شربتُ دماءك مثل الكحول
ولن أتراجعَ عمَّا أقول..
سأرمي إلى البحرِ
قُمصان يومي..
وأُحرقُ كلَّ المراكب قبلَ الوصول
سأعلنُ – يا أيُّهَا الديكُ –
أنِّي انتقمتُ
لكلِّ نساءِ العشيرة منكَ
وأنِّيَ طعنتكَ..
مثنى..
ثلاثاً..
رباعاً..
وأنِّ دفنتكَ تحت الطُّلول..
ولن أتراجع عمَّا أقُول..
سأثأرُ..
للحائراتِ، وللصَّابراتِ..
وللقاصرات اللواتي اشتريتَ صباهُنَّ..
مثل البَذار.. ومثلَ الحقُول..
سأصرُخُ:
باسم العذارى اللَّواتي
تزوَّجتَهُنَّ..
وطلَّقتَهُنَّ..
كما تُشترى، وتُباعُ الخُيولْ!!
أيا عاشقاً..
لا يُفرِّقُ في لُعبةِ الحُبِّ
ما بين لحم النساء..
وما بينَ لحمِ العجولْ..
سأصرُخُ:
حتَّى سُقوط السماوات..
فوقي، وفوقَكَ.. يا سيِّدي
ولن أتراجع عمَّا أقول..
أيا قادماً..
من كتابِ الغُبَارِ
بعينيكَ، ألمحُ عصرَ المماليكِ حيَّاً
وألمحُ سوقَ الجواري..
تصرَّفْ..
كما كان يوماً جُدودُكَ..
يستملكونَ النساءَ..
كأيِّ عقارَ..








ويعتبرونَ الأنوثَةَ..
مصدرَ ذُل،
ووصمةَ عارِ
تصرَّفْ، كأيِّ ابنِ آوى
يُرَوِّعُ ليلَ البراري
فلن أتراجعَ
يا سيِّدي، عن قراري..
يا أيُّها الجاهليُّ المخضرمُ..
يا راجعاً من فرنسا
على فرسٍ من حديدْ..
وفي شفتيه حليبُ النياقِ..
وطعمُ الثَّريد..
أما صقلتكَ الحياةُ قليلاً؟
أما هذَّبتكَ النساءُ قليلاً؟
أما علَّمتكَ مقاهي المدينةِ
أيَّ كلامٍ جديد..؟
أنا لستُ أُنثاكَ، يا سيِّدي
ففتِّشْ عن امرأةٍ ثانية..
تُشابه أيَّة سجَّادة
في بلاط الرَّشيد..
أنا امرأةٌ من فضاءٍ بعيدٍ
ونجمٍ بعيد..
فلا بالوُعود ألينُ..
ولا بالوعيدْ..
أنا لستُ أُنثاكَ.. يا سيِّدي
فنحن نقيضانِ في كلِّ شيء..
ونحن غريبانِ في كلِّ شيء..
فماذا لديَّ تُريد..

تصرَّفْ..
ككُلِّ رجالِ القبيلةِ..
غزواً.. وفتكاً..
وكرّاً.. وفرّاً..
فليس بتاريخ جَهْلكَ.. شيءٌ جديد.
تصرَّفْ..
كأيِّ ابنِ آوى
فلن تتمكنَ من أكلِ لحمي
ومِنْ جَزِّ صوفي..
فجسميَ أرضٌ حرامٌ..
وعقليَ ثلاجةٌ للجليد..
تصرَّفْ..
كذئب يُجيدُ ثلاثَ لُغات
فلن تستطيعَ اختراقَ حُصُوني
ولن تستطيعَ احتواءَ جُنُوني
ولن يستطيعَ جنودُكَ
أن يشرَبوا قطرةً
من سواد عُيوني..
لسوف أُعيدُكَ، يا سيِّدي
بكُلِّ احترامِ
كما جئتني بالبريدْ..
فلستُ أحبُّكَ أنتَ
ولستُ أحبُّ حليب النِّياقِ..
وطعمَ الثريدْ..
سأنسفُ..
هذي السَّماوات..
نجماً.. فنجماً..
ولن أتنازلَ عمَّا أريد..




تكريم الأديب والباحث المغربي عبد الكريم غلاب

شهد فندق هيلتون الرباط حفلاً زاهراً حضره عدد غفير من الوزراء والسفراء والسياسيين والأدباء، وذلك تكريماً للأديب والباحث المغربي عبد الكريم غلاب. رعت الحفل الدكتورة سعاد الصباح وناب عنها نجلها الشيخ مبارك عبد الله المبارك الصباح.

افتتح الحفل الدكتور محمد يوسف نجم، أستاذ شرف اللغة العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت والذي قدم للحضور صورة كاملة عن دور سعاد الصباح في مسيرة الثقافة العربية وما قدمته من جليل الأعمال سواء في ميدان النشر أو في مسابقات الإبداع للشباب العربي وفي تكريمها لرواد الثقافة العربية الأحياء.

وألقى الشيخ مبارك عبد الله المبارك كلمة الدكتورة الصباح معتذراً عن اضطرارها للتغيب عن الحفل لظروف قاهرة فقال:

يشرفني أن أقف بينكم الليلة حاملاً إليكم أصدق مشاعر العرفان لتفضلكم بحضور حفلنا هذا والذي يقام تكريماً لرائد من رواد الثقافة العربية، اختارت الوالدة الجليلة الدكتورة سعاد محمد الصباح أن يكون لاسمه التكريم، وفاء لعطاء لم ينضب في مختلف فنون الإبداع العربي.

وإذا كانت الجبال والصحارى والسهول قد باعدت بين بلدينا الحبيبين: المغرب والكويت، فإن الكلمة العربية النقية قد وحدت ما بيننا من روابط وأقامت جسراً للعروبة لن يزول.

في المعتاد أن نكون أصحاب الدعوة وأن تكونوا ضيوفنا، ولكنني أستشعر الليلة أنكم أنتم أهل الدعوة وأنني الضيف الصديق يحل في ربوعكم، فتمتلئ النفس بعبير حفاوتكم وأنقى ما في الدنيا من مشاعر الإخاء والتواصل.

أيها الحفل الكريم:

أنقل إليكم تحيات الوالدة وعميق اعتذارها عن عدم المشاركة في هذا الحفل، لأسباب تحول دون وجودها معنا، وأرى أن حضوركم أنتم ينوب عنها لأن في قلب كل منا غيمة وفاء لهذا الرجل النبيل، والذي إليه تتجه أبصارنا بالاحترام والمهابة.

أيها السيدات:

أيها السادة:

يشرفني أن أحمل فيما أحمل من دفق المشاعر، هذه الكلمة التي أكرمتني الدكتورة سعاد محمد الصباح بإلقائها نيابة عنها:

الشيـخ مبـارك يهدي المحتفـى بـه الكتاب التكريـمي

المحتـفى بـه يقـدم للشيـخ مبـارك ضيوفـه .

من اليمين : د . بربيش ، غلاب ، الشيخ مبارك ، د . نجم .

الشيخ مبارك عبد الله المبارك يلقي كلمته .

عـــندما أطالع وجه السماء ألمح مئات النجوم تتلألأ في إعلان واضح للإرادة الإلهية السامية التي أوجدت هذا الكون وأعطت الحياة فيه للأرض وللسماء، للبشر والماء والحجر.

وعندما أطالع وجه المغرب تعود بي الذاكرة لتلك الصداقة الأخوية التي كانت تربط بين جلالة الـــراحل الكـــبير الملك محمد الخامس وبين زوجي وصديقي الشيخ عبد الله المبارك الصباح رحمهما الله، لأربعيـــن مضـــت مـــن السنين، حين جئت بلدكم الرائع بصحبة الزوج الكبير وحللنا ضيوفاً على جلالة الراحل العظيم الملك الحسن الثاني.

لقد طفنا المغرب وزرعنا في قلوبنا محبته كما زرعت يد الله كل هذا الجمال في ربوعه وهذه الخضـــرة فـــي روابيـــه، جـــارة لزرقة المتوسط والأطلسي ليكون المغرب بذلك جسر الأمان في دنيا المحيطات وزهرة المحبة في متون الأرض.

منذ ذلك الوقت عرفت المغرب في عيون تفرح للأمل وفي بهاء الطبيعة التي تزداد بريقاً يوماً بعـــد الآخر. كما عرفته في نتاج فلسفي وعلمي وأدبي وتاريخي متعدد الأصوات، ولكنه موحد الغايات وكبير التطلعات لعالم أفضل.

ووســـط هـــذه الكوكبة من النجوم في عوالم اليقظة القومية، كان اسم المبدع العربي الأستاذ عبد الكريم غلاب ساطعاً كالشهاب ومنيراً كينبوع ضوء.

وإذا كـــان من نوادر العصر أن يستمر المبدع في عطائه لأكثر من خمسين عاماً، فإن ضيفنا هـــو واحـــد مـــن علامات الندرة الإبداعية إذ لا يزال، وله العمر الطويل، معطاء في مختلف صنوف العطـــاء، ومســـتمراً دون توقـــف فـــي تدوين الكلمات: قلادات من الجوهر وسحباً من متون الرواية والقصة والتفسير والدراسة والمقالة. وفي ذلك تنوع يتطلب طاقة خلاقة هادرة، وإنها في الأستاذ عبد الكـــريم غـــلاب واجـــدة ذاتهـــا في ذاته، وصوتها في حروفه وضوءها فيما صاغ من جوهر الرؤى والصور والأحلام.

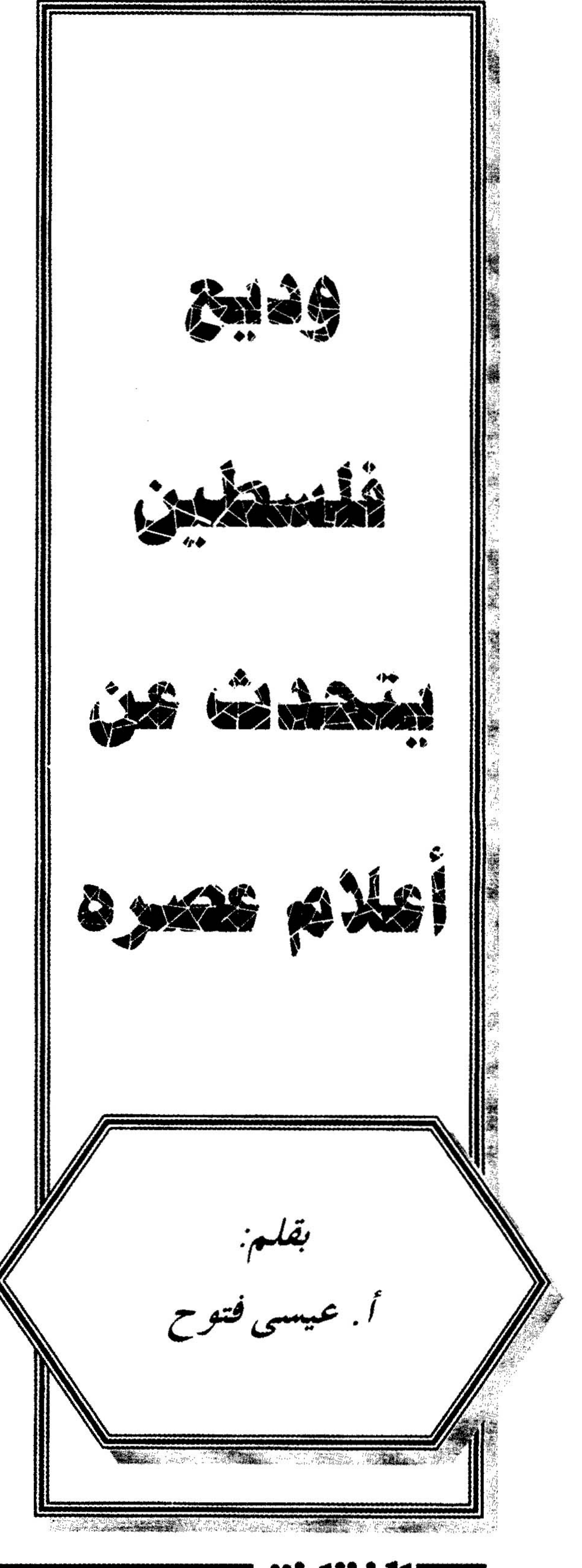
أيها الحفل النبيل:

أمـــام هـــذا الطـــود الشامخ بعنفوان الإيمان القومي، في زمن ضاعت فيه الإرادات والعقول، واستبيحت الكرامات وحل التخاذل محل الكبرياء.

أمـــام هـــذا الصـــوت الطاهر في زمن الرداءة وبؤس القيم، نقف بالإكبار تحية لرجل حقيقي، رداؤه الإيمـــان وســـيفه القـــلم المؤمن بالعروبة مصيراً وبالنصر قدراً، لنقول له: شكراً يا سيدي لك، وشكراً للمغرب الذي أعطى الأمة بأمثالك نموذجاً وقدوة ومشعلاً للحق لن يغيب.

ثـــم ألقى الدكتور عبد اللطيف بربيش، أمين السر الدائم للأكاديمية الملكية المغربية كلمة حيا فيهـــا المحتفى به ووصفه بأنه علم مفرد في تاريخ الثقافة في المغرب وشدد بالشكر على ما تقوم به الدكتورة سعاد الصباح "إنه تكريم يذكرنا بأن أمتنا لا تتنكر لمبدعيها".

كـــلمة المحتفى به كانت عابقة بالعاطفة وبالعرفان لمن كرمته ولمن أسهموا في صياغة كتاب التكريم الذي أصدرته دار سعاد الصباح للنشر بعنوان: "عبد الكريم غلاب: ضوء يشرق من المغرب".



منذ أواخر الخمسينات من القرن الماضي، أخذت مجلة "الأديب" اللبنانية لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨- ١٩٨٥) تحتل حيزاً واسعاً في حياتي الأدبية، وأعترف أنه كان لهذه المجلة الرصينة فضل كبير علي لا أنساه.. فعلى صفحاتها تتلمذت ونشرت مقالاتي الأدبية، وعن طريقها تعرفت إلى نخبة طيبة من أعلام الأدب في الوطن العربي، ممن ربطتني بهم فيما بعد أواصر المودة والصداقة، ومن هؤلاء الصديق الحميم الأستاذ وديع فلسطين الذي مازلت حتى اليوم أراسله بانتظام، ونتبادل في رسائلنا الآراء والأفكار، وأخبار الأدب والأدباء في كل من سورية ومصر.

كان وديع فلسطين ينشر في مجلة الأديب "أحاديث مستطردة" عن الأدباء الذين عرفهم وخبرهم وزاملهم واصطفاهم، وتبادل معهم الرسائل، أو التقاهم إبان عمله في الصحافة منذ عام ١٩٤٢ حتى اليوم، ولما توقفت الأديب عن الصدور في كانون الأول عام ١٩٨٣ استأنف نشر هذه الأحاديث في جريدة "الحياة" التي تصدر في لندن، حتى بلغ عدد من كتب عنهم أكثر من تسعين أديبا وكاتباً وعالماً ومفكراً وصحفياً عربياً.. وكنت في كل رسالة أكتبها إليه، أحثه على جمع هذه الأحاديث القيمة ونشرها في كتاب، كي يستطيع القارئ الرجوع إليها متى شاء، قبل أن تعبث بها أيدي الضياع.. إلى أن زاره الأستاذ محمد علي دولة - صاحب دار القلم بدمشق - في منزله عام ٢٠٠١، وعرض عليه فكرة نشر هذه الأحاديث التي ترك القلم يجري فيها على سجيته - كما يقول - وصور فيها مرئياته، دون التزام بمذهب معين في كتابة التراجم والسير، وشرّق وغرّب، وشرد على هواه هنا وهناك، لأنه كان يعيش بقلبه وروحه في الجو الأدبي والإنساني للأعلام الذين تناولهم.

في عام ٢٠٠٢ زار الأستاذ محمد علي دولة الأديب وديع فلسطين في منزله بالقاهرة مرة ثانية، وتحدث معه بشأن نشر

هـذه الأحاديث، فوافق وأعطاه أصولها المعدة للطبـع، وصدرت فعلا عام ٢٠٠٣ في مجلدين أنيقيـن وفاخـرين طـباعة وإخراجا وتجليدا تستـحق دار القلم التهنئة على العناية الفائقة بهمـا، ضم المجلد الأول سبعة وأربعين علماً فـي ٣٧٧ صـفحة مـن القطع الكبير، وضم المجلد الـثاني ستة أربعين علماً في ٣٥٢ صـفحة، فيكـون مجموع الأعلام الذين تحدث عـنهم ثلاثـة وتسعين علماً، ممن ربطته بهم أواصـر المعرفة والمودة والصداقة، وقد رحل معظمهم عن هذه الدنيا.

أهم ما يميز هذه الأحاديث المستطردة أن وديـع فلسطين قد ضمنها بأسلوبه السهل الممتـنع الكـثير مـن القصـص والأخـبار والمعلومات الشخصية والخاصة التي لا يعرفها أحـد غيره، اختزنها على مدى ستين عاماً في ذاكـرته الحيـة، وباح بها للقراء بعد أن غيب المـوت أصـحابها، فمـن المعروف أن وديع فلسـطين "موسـوعة واسـعة المدى، عميقة الغور - كما قال عنه الأستاذ الدكتور يوسف عـز الديـن - صـحب قادة النهضة الحديثة، وزامل أرباب الفكر وأساطين السياسة والنقد، وهو من القلة القليلة الذين لهم صلات واسعة، ومعـارف فـي كل مكان من أرض المعمورة، واسع الأفق والحب والتراسل، يحبه الكثيرون، ويعجب به من عرفه وراسله وكتب إليه.

كـان في نية الصديق وديع أن يضيف عـددا آخـر مـن الأعلام إلى هذين المجلدين الكـبيرين، لكـن "ظروفاً مفاجئة باغتته، فرفع القـلم، وفي نفسه آهات من الحسرات" وكل ما أرجـو أن تواتيـه الهمـة، ويطول به الأجل، وتسـعفه الصـحة - بعـد أن بلغ الثمانين - ليواصـل الكـتابة عـن باقي الأعلام الراحلين الذيـن أغفـلهم عـن غير قصد، ليكمل عمله الموسوعي الضخم الذي سد فراغاً في المكتبة العـربية، فالكـتابة عـن أعلامنا المعاصرين واجب علينا يفرضه الوفاء والاعتراف بالجميل لمـن أرسـوا دعائم نهضتنا الفكرية والعلمية والأدبية في القرنين التاسع عشر والعشرين..

وقـد فعلت مثله في كتبي: شموع في الضباب، ومـن أعـلام الأدب العـربي الحديث، ووجوه مضـيئة في الأدب العربي الحديث، وأدباء في الذاكـرة التي درست فيها مئة وثلاثة وأربعين أديـباً.. وفعـل عبد الغني العطري (١٩١٩ - ٢٠٠٣) في كتبه: عبقريات شامية، وعبقريات مـن بـلادي، وعبقريات وأعلام، وعبقريات، وأعـلام ومـبدعون، وحديـث العـبقريات.. لكنه اقتصر في عمله على أعلام سورية فقط، ولـم يـتطرق إلى أي أديـب خـارج حدودها الجغرافية.

بقـي أن أذكـر بعـض الأعلام الذين تـناولهم فـي كـتابيه مثل: إبراهيم المازني، إبـراهيم المصري، إبراهيم ناجي، أحمد حسن الـزيات، أحمـد زكي أبو شادي، أكرم زعيتر، ألـبير أديب، الياس فرحات، أمين نخلة، بدوي طـبانة، بشـر فـارس، بولس سلامة، جعفر الخليلي، جميلة العلايلي، جورج صيدح، حبيب جامـاتي، حبيب الزحلاوي، خليل ثابت، خليل مطـران، الشاعر القروي، روز أنطون حداد، زكـي قنصـل، زكي مبارك، زكي المحاسني، سـاطع الحصـري، سـعيد تقي الدين، سلامة موسى، سيد قطب، صلاح المنجد، طه حسين، عـادل زعيتر، عادل الغضبان، عباس محمود العقـاد، عـبد الـرحمن صدقي، عبد العزيز الـرفاعي، عـبد الكـريم جرمانوس، عبد الله يوركـي حـلاق، عـبد المسيح حداد، عجاج نويهـض، عدنان الخطيب، عزيز أباظة، علي أدهـم، عيسـى الناعوري، فارس نمر، فدوى طوقـان، فـؤاد صـروف، فيليب حتي، قدري حـافظ طوقـان، كامل السوافيري، كريم ثابت، محمـد جميـل بيهم، محمد عبد الغني حسن، محمـد لطفي جمعة، محمد مندور، محمود أبو الوفـا، محمـود حسـن اسماعيل، مصطفى الشـهابي، مـي زيادة، ميخائيل نعيمة، نجيب العقيقـي، نجيـب محفوظ، نظير زيتون، نقولا الحـداد، نقولا يوسف، وداد سكاكيني، يعقوب العـودات، يوسـف أسعد داغر، يوسف جوهر وغيرهم..




ديمة..

شعر : د. محمد الحسواني

نظمت هذه القصيدة لابنتي ديمة وكان عمرها ثلاث سنوات ونصف،
وكانت البنت الأولى بعد أخويها عبد الله ونعمة الهادي
وأضفت عليَّ وعلى العائلة شعوراً متميزاً..

أ بنيّـــــتي أنـــــت الـــــتي أكمــــلت لـــــي
معـــــنى الحيــــاة وســــلطةَ الوجـــدانِ
يــــا ديمـــــتي أمطرتــــني نعمـــــاً وجـــــا
دَ الله مُـــــذْ أقدمْــــــت بالإحســـــانِ
إنّـــــي لأشـــــعر بالحيـــــاة تجـــــدّدتْ
وأحـــسُ أن الــــنفس فـــي اطمئـــنانِ

*　　*　　*

لمّـــــا تداعـــــب بســـــمتي أهدابُهـــــا
توحـــــي إلـــــيّ خواطــــراً وأمـــــاني
ويشـــــع نـــــور الحـــــب مـــــن نظـــــراتها
وأســـوحُ فـــي روضٍ مـــن المـــرجانِ
وتكـــبل العيــــنان فـــــي لمعانهــــا
قلـــبي وتـــأخذني أســـير بـــنانِ
وأظـــلُّ رهـــن الأمـــر فـــي أعطافهـــا
وأمـــسُّ ســـرّ الحـــب بالخفقـــانِ




فلـــــتحفظ الـــــلهمَّ قلـــبــاً خافقـــاً

فـــي صـــدرها الـــرحب المحـــبّ الحـــاني

تـــبّاً لمـــن كـــره الفـــتاةَ وظـــنَّ أنَ

الخيـــرَ كـــلّ الخيـــر فـــي الفـــتيانِ

فرســـــولُ رب العــــالمين محمـــــدٌ

نـــادى لأهـــل البـــنت بالغفـــرانِ

*   *   *

أ بنيـــتي أخشـــى عـــليك مـــن الهـــوا

ء يطـــوف حـــول لواحـــظ الأجفـــانِ

فالـــريّح تحمـــلُ مـــا يطيـــب مـــن الشـــذا

وتلامـــسُ الوجـــناتِ لمـــسَ حـــنانِ

وتـــثيرُ فـــي الأعمـــاق أشـــجان الصـــبا

وتؤانــــس الأرواح بالألحــــانِ

لكـــنّها قـــد تســـتدير عـــلى الـــرّما

د تـــذرّ فـــي الألحـــاظ ذرَّ دُخـــانِ

أ بنيـــتي إنَّ الحيـــاة جميـــلةٌ

فيهـــا تجـــلّت قـــدرة الـــرحمانِ

أنّى تـــرامى الطّـــرفُ أدرك خـــلقةً

كســـيت بـــثوب الحُسْـــن والإتقـــانِ

فـــي أوجـــه الأطفـــال تطفـــح بالـــبرا

ءة تحمـــل البُشـــرى لكـــلّ مكـــانِ







فـــي نغمـــة الشـــحرور فـــي ســـرب القطـــا
فـــي روعـــة التصـــوير بـــالألوانِ
فـــي مبســـم الزّهـــر المبـــلّل بالـــنّدى
فـــي ميـــس أغصـــان الـــرّبا والـــبانِ
فـــي ســـكبةِ الشّـــلالِ يعـــبث بالحصـــى
فيخـــالط الألمـــاسَ بالعقيـــانِ
فـــي هـــدأة الـــليل الجـــليل بِصـــمته
يغشـــى الوجـــودَ فيســـتريحُ العـــاني
فـــي طـــلعة الـــبدر المـــنير تحيطـــهُ
أرتـــال نجـــمٍ دائـــم الـــلمعانِ
ويـــراقب الـــنجمِ الأميـــن عـــلى الهـــوى
خُطُـــواتِ أهـــل العشـــق والإيمـــانِ

* * *

أوصـــيك بالإيمـــان بـــالله الـــذي
يُفـــني الوجـــود إذا ارتـــأى بـــثواني
فـــالله قـــد خـــلق الخلائـــق عـــندما
شـــاءت إرادتـــهُ ظهـــور الفـــاني
مـــن ذا الـــذي يســـطيع خـــلق بعوضـــةٍ
أو يوقـــف الدنيـــا عـــن الـــدوران
أو يخـــلق الـــنطف الـــتي حُفظـــت بهـــا
كـــلُّ الصـــفات وبـــنيةُ الإنســـانِ




بمورّثـــــاتٍ أُحكمـــــت فـــــي دقـــةٍ

ضـــمن السلاســـل فـــي عُـــرا الألـــوانِ

وتبايـــــنتْ صــــورُ الخلائـــقِ واســـتوتْ

بتناســـــق الـــــذرّات فـــــي البـــنيانِ

وهـــــناك روحٌ أو قـــــوىً روحيّـــــةٌ

قـــــد صـــــاغها الله بشـــــكلٍ ثـــــاني

والعـــــلم بـــــالموجود أمـــــرٌ واجـــبٌ

حـــــتّى تجـــلّى كـــــامل الأركـــــانِ

والعـــــلمُ قـــــد شـــمل الوجـــود بأســـرهِ

مـــــن غابـــــر الأحقـــــاب والأزمـــــانِ

لكـــــنّ عِـــــلم الـــــناس أمـــــرٌ محـــدثٌ

فمـــــن العـــــليم بســـائر الأكـــوانِ؟؟

لـــــو فكّـــر الإنســـــان ممـــن جـــاءه الـــــ

ـعـــــرفانُ والقـــــدراتُ فـــــي إمعـــــانِ

لأقـــــرَّ أن الله مصـــــــدرُ عـــــلمه

فـــــالعقلُ موهـــــوبٌ مـــــن الديّـــــانِ

فـــــليرجع الإنســـــان عـــــن غُـــــلوائهِ

وليلـــــتزمْ بالسّـــــعي والعـــــرفانِ

فـــــلقد تســـخّرتِ الـــــثّرى إذ ذلّـــــلَتْ

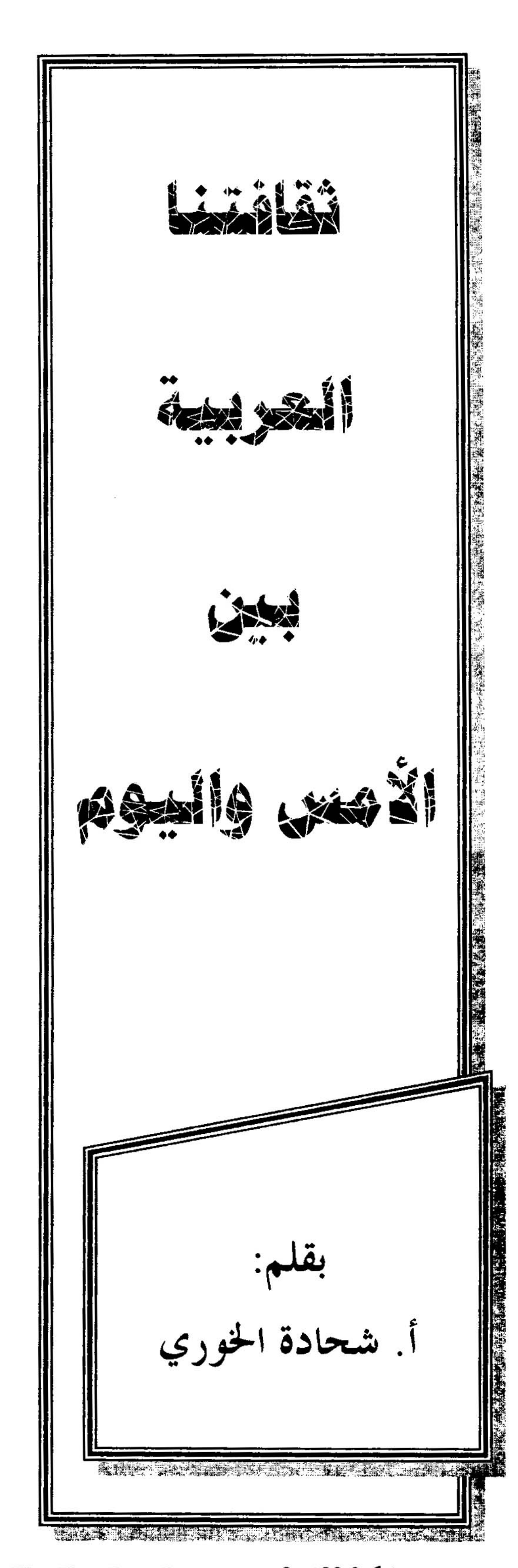
للـــــنّاس والأقمـــــارُ فـــــي ســـلطانِ

فلـــــنحمد الـــــباري عـــــلى نعمائـــــه

ولنعـــــبد الـــــرحمانَ دونَ توانـــــي







بتاريخ ٧ / ١١ / ٢٠٠٣ و بدعوة من نادي جمعية الشبان السريانية بدمشق، ألقى الأديب والباحث شحادة الخوري عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، محاضرة بعنوان (الثقافة العربية بين الأمس واليوم) حضرها قداسة البطريك أغناطيوس زكا الأول عيواص، بطريك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس، والرئيس الأعلى للكنيسة السريانية الجامعة في العالم، والدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية، والدكتور عبد الله واثق الشهيد أمين المجمع، ونخبة من الأدباء والباحثين والمفكرين، وفيما يلي نص المحاضرة :

المقدمة

ما معنى الثقافة، لغة واصطلاحاً؟ ما أهميتها؟ ما مضمونها؟ ما سمات ثقافتنا العربية؟ ما هي التحديات والأخطار التي تتعرض إليها اليوم، وما سبل درئها للحفاظ على ذاتيتنا الثقافية؟ ثم كيف ننمي ثقافتنا ونحدثها مواكبة للعصر؟

هذه التساؤلات وأمثالها شغلت المفكرين العرب منذ حوالي قرنين من الزمن، ابتداءً من ولادة مشروع النهضة العربية الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر، ولكنها تحولت هاجساً في العقود الخمسة الأخيرة الجسيمة التي عصفت بالوطن العربي.

وقبل أن أدخل في شعاب هذا البحث، أود أن أجيب عن بعض التساؤلات التي ذكرت، تاركاً الإجابة عن بعضها الآخر ليجيب عنها البحث نفسه في سياقه وخاتمته، وما سيليه من تعقيبات ومناقشات.

أولاً – الثقافة عامة:

١ – معنى الثقافة:

الثقافة، لغةً مصدر لفعل ثقُفَ. جاء في "لسان العرب" لابن منظور: ثَقُفَ الرجل ثقافةً صار حاذقاً فهو ثَقِفٌ.

وجـاءَ في المعجم الوسيط: " ثقف العلم والصناعةَ حَذَقَها. وثاقفه مثاقفة: لاعبه لإظهار الحـذق، و ثقّفــه: أدبه وهذبه. و ثقف الرمح قوَّمه.

الـلفظة إذن عــربية الــنجار قديمــة الاســتعمال. تدور حول الفطنة والفهم والحذق والتعـلم. وفــي العصر الحديث صارت مقابلة لــلفظة الإنكــليزية / الفرنســية culture المــأخوذة من كلمة cultura اللاتينية، هذه الــلفظة الــتي شــاعت فــي الغرب في عصر النهضة الأوربية.

٢ – تعريف الثقافة:

حــاول المفكرين والدارسون من العرب وغيــرهم أن يضعوا تعريفاً لهذا المصطلح فلم يُجمعوا على تعريف واحد بل وُضِع له أكثرُ من مئتي تعريف.

وأورد هنا التعريف الذي ورد في "الخطة الشاملة للثقافة العربية" التي وضعتها المنطقة العــربية للتربية والثقافة والعلوم ووافق عليها مؤتمر وزراء الثقافة العرب عام ١٩٨٥:

" تشــمل الثقافة مجموع النشاط الفكري والفــني بمعــناه الواســع ومــا يتصل به من المهــارات أو يعيــن عليه من الوسائل. وهي تنــتظم جميع السمات المعبرة للأمة: الروحية والفكرية والفنية والوجدانية ...

وفــي موضــع آخــر ذكرت الخطة: "أن الــثقافة تشــمل مجموعــة المعــارف والقيم وطــرائق الــتفكير والإبداع الجمالي والمعرفي والتقــني، وســبل السلوك والتصرف والتعبير وطــرزَ الحياة، كما تشمل تطلعات الإنسان إلى المثل العليا والبحث الدائب عن مدلولات جديدة لحياتــه وقيمه ومستقبله وإبداع كل ما يتفوق به على ذاته.

وباختصار هي جملة من العناصر الثابتة أو القريــبة مــن الثــبوت والعناصر السريعة التحول والتغير.

وفي عام ١٩٨٢ عقدت المنظمة العالمية لــلتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) مؤتمراً في مكسيكو عاصمة المكسيك بشأن "السياسات الــثقافية ". وجاء في الإعلان الذي صدر عن المؤتمــر: "إن الــثقافة هي التي تمنح الإنسان القــدرة على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل مــنه كائــنا يتميز بالإنسانية المتمثلة بالقدرة عــلى الــنقد والالتزام الأخلاقي. وعن طريقها نهــتدي إلى القيــم ونمــارس الاختيار، وهي وســيلة الإنســان للتعبير عن نفسه والتعرف عــلى ذاتــه والــبحث دون ملل عن مدلولات جديدة و حالات إبداع"

ويــبدو أن الإنســان وحــده، مــن بين الكائــنات الحيــة، قد تفرّد بصنع الثقافة، فهي فارق كمي بين فرد وآخر وجماعة وأخرى.

إن الــثقافة تشــمل عــلى العلم، وهي بدورهــا مــن مكونــات الحضارة التي تحيط بالجانــبين المعــنوي و المــادي مــن التراث البشري.

٣ – مضمون الثقافة:

وبعــد اطلاعــي عــلى تعريفات أخرى للثقافة، أستطيع القول إن مفهوم الثقافة يشمل مســاحة واســعة مــن النشاط الإنساني، في مجــالات الفكــر والأدب والعــلم والفن، وإنها تتجلى بأشكال متعددة:

- فــي الــنفس والعقــل: تشمل المنظومات الــروحيةَ والخــلقية والســلوكية "القيمية" لــلفرد والجماعــة، كمــا تشمل الأعرافَ والعــادات والــتقاليدَ والحياة العقلية "الفكر والعــلومَ والمعــارف" والحيــاة الوجدانية للإنســان بكــل مــا تخــتزن من مشاعر وعواطف.
- في الكلمة: تتمثل بالآداب: الشعر الذي يعبِّرُ بالــلغة عن الأفكار والأحاسيس والتخيلات، والفنون النثرية المختلفة.
- فــي الــلحن: وتشــمل الموسيقى والغناء والــتراتيل والإنشــاد والعزف على الآلات المتنوعة.
- فــي الحركة: إنها تشمل التمثيل المسرحي والتلفزي والسينمائي والرقص بأنواعه.

- في الفن التشكيلي: وتشمل الرسم والتصوير اليدوي والفوتوغرافي والزيتي والتزييني كما تشمل النحت والنقش على الخشب والمعدن والزجاج والخط والعمارة.
- في العمل اليدوي: وتشملَ الأعمال التي تُستخدم فيها المواد المختلفة كالخشب والمعدن والجلد والقش والدِّهان بجميع أنواعه.

٤ - أهمية الثقافة:

إن الثقافة تُكسب الإنسان تميُّزه وهويته، وتحدد نسبته إلى جماعة معينة، كما تكسب الجماعة تميزها وهويتها وتحدد نسبتها إلى الجماعات الأخرى، إذ هي حصيلة ارتسامات الجغرافية من حيثُ موقعُ الأرض ومناخها، والتاريخِ بأحداثه وتقلباته، في نفسية الجماعات، وجُهد هذه الجماعات في الحفاظ على وجودها وإغنائه.

وبسبب هذا كله كثرت الدراسات حول طبيعة الثقافة وأقيمت الندوات حول موضوعات السياسات الثقافية والتبادل الثقافي، والتنمية الثقافية والغزو الثقافي، وأُنشئت وزاراتٌ للثقافة ودورٌ للثقافة ومراكز وأنديةَ وصحافة.. إلخ..

ومن اللافت للنظر أن أولى وكبرى المنظمات التي أقامتها هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثاني هي المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) وأن أولى المعاهدات التي أقرها مجلس جامعة الدول العربية هي المعاهدة الثقافية الموقعة عام ١٩٤٥، وأولى الإدارات التي أحدثتها الجامعة وفي العام المذكور نفسه هي الإدارة الثقافية، وأن كبرى المنظمات التي أنشأتها هي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) عام ١٩٧٠ ثم قامت على غرارها المنظمة الإسلامية للتربية والعلم والثقافة عام ١٩٨١ (الأسيسكو).

ثانياً - الثقافة العربية:

١ - الثقافة العربية:

إن الثقافة العربية هي إحدى الثقافات الكبرى التي تتشكل منها الثقافة الإنسانية الشاملة، بامتدادها في الزمان والمكان. أما من حيث الزمان، فقد بدأت بالتشكل في عصور مغرقة في القدم ولا يستطيع أحد أن يحدد تاريخاً لنشأتها. بيد أن ما وصلنا من العصر الذي سبق ظهور الإسلام والذي ندعوه "العصر الجاهلي" من روائع شعرية أهمها المعلقات السبع أو العشر، وما بلغنا من خطب وحِكَمٍ وأمثال ليعكس لنا حالة من التطور الفكري والاجتماعي واللغوي والفني.

ولئن امتد هذا العصر نحواً من مئتي عام، فقد سبقته قرون عديدة كانت الثقافة في جزيرة العرب - وأداتها اللسانَ العربي - تتشكل شيئاً فشيئاً، وتتمايز من ثقافات الجماعات العربية القديمة التي دعيت بالسامية اصطلاحاً، والتي نزحت إلى منطقة الهلال الخصيب وبلاد الشام ومصر خلال فترات متعاقبة، قبل ظهور الإسلام بزمن مديد، وأقامت مدناً وأنشأت دولاً، وطورت معارف، وأسست حضارات.

ثم جاء الإسلام فأغنى الثقافة العربية بالقيم والمعاني السامية ومكّنها من الاستمرار من بداية ظهوره حتى اليوم، متألقةً في عصر النهضة الحديثة.

أما من حيث المكان، فقد حملت الفتوح والانتصارات الثقافة العربية بعيداً عن مراكز الحكم عواصم الدولة العربية في المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة إلى بلاد الأندلس غرباً وبلاد السند شرقاً أي أنها عَمَّت العالمَ المتمدنَ في القرون الوسيطة، وأينعت ثمراتُها في القلب والأطراف على السواء، من دمشقَ وبغدادَ والقاهرة إلى همذانَ وسمرقندَ ومراكشَ وقرطبةَ واشبيليةَ وغرناطة.. وتلك آثارها ومعالمها باقيات على الدهر.

٢ – *سمات الثقافة العربية:*

إن ثقافتنا العربية تمتلك من السمات والخصائص ما يؤكد تميزها وتفردها ومنها:

١ – المنحى القيمي الإنساني: لقد اتسمت ثقافتنا منذ الجاهلية بروح إنسانية عالية: الإباء والشجاعة والتضحية دفاعاً عن الدار والزِّمار، والكرم سمعة تطلب وشرف يرغب، والإيثار والمروءة ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف.. وجاء الإسلام فثبَّتَ القيم الحسنة وأبطل الضارة كالثأر والوأد، وأضاف قيماً جديدة سامية: قيمَ الحق والمساواة والعدل والشورى، مؤكدا بذلك أهم المبادئ والقيم التي جاءت بها المسيحية من قبل والتي اعتنقها العديد من العرب في الجاهلية ثم عايشت الإسلام منذ بزوغه حتى اليوم.

٢ – الشمول والانفتاح: في الجاهلية، كان الشعر ديوان العرب، إلى جانب الخَطابة والحكم والأمثال، وبعد الإسلام اتصلت الثقافة العربية بالثقافات الأخرى ولم تتردد في التعامل معها وفتحت ذراعيها لحكمة الإغريق والهند وآداب الفرس وعلوم اليونان والسريان، فاقتبست عن اقتدار معارف الآخرين لتصوغها من جديد بلغتها وتغذيها بإبداعها وعبقريتها: آداباً وفنوناً وعلوماً متنوعة كالطب والهندسة والفلك والحساب والكيمياء وغيرها.. وفيما بعد نقلت ثقافتنا إلى لغات الغرب فكانت أساس النهضة الأوروبية والعالمية في العصور الحديثة. إنها ثقافة حوار، تأخذ وتعطي مع الحفاظ على ذاتية مستمرة وطابع متميز دون تقوقع أو انغلاق.

٣ – القدرة التعبيرية: إن العربية أكملُ اللغات العربية القديمة "السامية" بناءً وأغناها لفظاً وأقواها تركيباً وأجملُها تعبيراً وأوضحُها دلالة على دقائق الطبيعة خفايا النفس. وكان للقرآن الكريم فضل على اللغة العربية وأي فضل. فقد وحّد لهجاتها وأغناها بمبانيه ومعانيه وبلغ في البلاغة الإعجاز، وأفسح لها أن تمتد في الأرض، إلى حيث انتشر الإسلام وهاجر العرب.

ثالثاً – التحديات والأخطار:

لم يعش شعبنا العربي في أية حقْبَة من حقَب تاريخه الطويل، في عزلة عن الشعوب الأخرى ولا سيما الشعوب المجاورة له، بل كان على اتصال معها وتفاعلت ثقافته بثقافاتها، أخذاً وعطاءً، وهذا ما ندعوه المثاقفة. إن المثاقفة عملية تفاعل وتبادل وتكامل بين الأنماط الثقافية، تجري بطواعية واختيار دون قسر أو افتعال. نقل العرب بالمثاقفة آداب من كانوا قبلهم وعلومَهم فتمثلوها وأضافوا إليها، ونقل الغرب عن العرب بالمثاقفة علومَهم وآدابَهم وتمثلها وأضاف إليها.. إن المعرفة كالشمس تسطع هنا وهناك فتنير الدنيا وتبدد الظلمة، والإنسان أخو الإنسان، شاء أم أبى.. وإذا انتقل المَشْعَل من يد إلى يد، فذلك من تبدل الأحوال وتقلب الأيام والأزمان.

أما الغزو الثقافي الذي مارسه الغرب على أمتنا العربية من بداية يقظتها في هذا العصر حتى اليوم، بدافع مصالحه السياسية والاقتصادية التي لا حدود لها، فقد تمثل بالسعي لاختراق ثقافتنا والنيل من لغتنا وتنميط عقولنا ومشاعرنا وأذواقنا وفقاً لنهجه وأسلوبه ليجعلنا أرقاماً في دائرته وسوقاً لمنتجاته ومصدراً لثرواته.

إن المثاقفة عمل مشروع وأخلاقي والغزو الثقافي غير مشروع ولا أخلاقي. لقد بدأت محاولة الغرب هدمَ السور الواقي للأمة العربية – الثقافة العربية – من منتصف القرن التاسع عشر. فقد عملت بريطانيا وفرنسا على عرقلة مسيرة التقدم والنهوض العربية بكل ما أُوتيتا من قوة ودهاء. وبعد الحرب العالمية

الثانية تصدَّت الولايات المتحدة لهذه المهمة ومعها الصهيونية العالمية وإسرائيل.

وقد اتخذت هذه المحاولات صورتين اثنتين:

أولهما: محاولة الإيقاع بالثقافة العربية بضرب أداتها في التعبير وهي اللغة العربية.

وثانيتها: محاولة الإيقاع بالثقافة العربية بضرب أداتها في التفكير وهي العقل العربي.

ومرت هذه المحاولات بثلاث مراحل:

الأولى: الغزو الثقافي اللغوي الرامي إلى إضعاف اللغة العربية ثم إلغائها.

الثانية: التطبيع الثقافي مع إسرائيل وتطويل الإنسان العربي وطمس تراثه والتخلي عن حقوقه.

الثالثة: العولمة الشرسة الساعية لإلغاء الخصوصية القومية والذاتية الثقافية وتعطيل العقل العربي أو نفيه وتبديله كيلا يعوق احتواء أمريكا العالم وسيطرتها على الكوكب الأرضي.

١ - المحاولة الأولى:

ادعى بعض المغرضين أن اللغة العربية الفصيحة لا تصلح لهذا العصر، فدعوا إلى هجرها واعتماد العامية، وزعم آخرون أن الحرف العربي لا يصلح البتة، ودعوا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، على غرار ما فعل أتاتورك باللغة التركية. كان من هؤلاء الدعاة وليم سبيتا الإيطالي الجنسية وكان مديراً لدار الكتب المصرية وويلكوكس البريطاني. ومن دعاتها العرب في مصر: عبد العزيز فهمي وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى. وفي لبنان: مارون غصن وسعيد عقل. إن هذه المحاولة قد فشلت فشلاً ذريعاً، ولكنها نبهت إلى ضرورة تمسكنا باللغة العربية الفصيحة وتحسين تعليمها وضرورة إتقانها، لغناها ومرونتها وقدرتها على النماء، ولأنها جوهر هويتنا القومية ومخزن ثقافتنا الفريدة.

أما الشّق الثاني من المحاولة فهو الادعاء بأن العربية لا تصلح لتدريس العلوم لبعدها عن مصادر العلم وافتقارها إلى المصطلح العلمي.

لقد أُحبط تدريس العلوم بالعربية في مصر بعد أن استمر فيها إحدى وستين سنة ١٨٢٦- ١٨٨٧، وأحبط في الجامعة الأمريكية ببيروت بعد أن استمر ثمانية عشر عاماً ١٨٦٦- ١٨٨٤.

إن سورية - وحدها - درست العلوم باللغة العربية بدايةً من عام ١٩١٩ حتى اليوم، وبنجاح مرموق.

٢ - المحاولة الثانية:

بدأت هذه المحاولة مع اتفاقية كامب ديفيد التي عقدت بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩برعاية الولايات المتحدة الأمريكية، ثم تتابعت بقوة بعد اتفاقية أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية واتفاقية وادي عربة بين إسرائيل والمملكة الأردنية الهاشمية.

سميت هذه المرحلة بالتطبيع أي جعل العلاقةَ طبيعية بين العرب وإسرائيل الغازيةَ المحتلة الدائبة على التوسع والاستيطان مع قمع وتعسف وتدمير للمنازل وتهجير للسكان العرب. إنه في الحقيقة تطويع وتركيع تحت لافتة التطبيع، وفرضٌ للخضوع والاستسلام تحت لافتة السلام.

وعلى أرض الواقع قامت إسرائيل وما تزال بمحاولة طمس الثقافة العربية في فلسطين، ومن إجراءاتها:

١ - ملاحقة الكتاب والفنانين وإدخالهم السجون.

٢ - إلغاء التراث الثقافي الفلسطيني أو سرقته وتشويهه.

٣ - قمع النشاط الثقافي مثل حل الفرق المسرحية ومداهمة المكتبات ومصادرة الكتب.. إلخ.

وقد رافقت حملة التطبيع هذه مساعٍ محمومةٌ لتدجين العقل العربي وإضعافُ مرتكزات الثقافة العربية، فطُرِحَتْ مقولاتٌ مغلوطةٌ كاذبة رَوَّجَ لها دعاةَ الصهيونية وأنصارُ إسرائيل، نذكر منها:

١- أن المنطقة الجغرافية، من الخليج إلى المحيط هي "الشرق الأوسط" لا الوطن العربي. إن هذه المقولة الضالة والمضللة تجعل العرب جزءاً من سكان المنطقة لا كل سكانها، وتنطوي على تأصيل إسرائيل فيها، فيكون الخزر والفلاشا من أهلها دون الفلسطينيين العرب المهجرين من أراضيهم.

٢- إن العرب لا يشكلون أمّة، بل ثمة أمة مصرية وأخرى تونسية وشعب جزائري وآخر سوداني.. أما يهود إسرائيل الذين وفدوا من مئة وعشرينَ دولة ويتكلمون ستين لغة، فهم شعبٌ واحد.

٣- أن إسرائيل دولة ذات حق في الوجود والبقاء لأنها تقوم على أساس وعد من الله لشعبه إسرائيل.

إنه لزعم مغاير لكل منطق ولا يقبله عاقل. ومتى كان الله يخص جماعة بأرض تعيش فيها جماعة أخرى منذ زمن مديد؟

٤- إن إسرائيل دولة ديموقراطية، بل واحة في صحراء، وأن في مقدورها أن تسهم في تنمية المنطقة بما تملك من تقدم علمي وتقني. ولكن ها قد مضت سنة وخمسون عاماً على قيام إسرائيل، وهذه الدولة تمارس العدوان والاغتصاب والعنصرية، بل تدمر بآلات الحرب منازل الأبرياء وتقتل الشيوخ والأطفال. فهل يصح نعتها بالديموقراطية؟ وأما خرافة التنمية فقد استنزفت إسرائيل بعدوانها المستمر موارد المنطقة وقوتها.

لقد كتب أحد المفكرين الفلسطينيين يقول: "إن العدو الصهيوني لم يوفر أية وسيلة قمعية ضد الثقافة الفلسطينية العربية، ولم يكن يرمي إلى طمسها بالمعنى المجازي للكلمة، بل بالمعنى الحرفي، وكان يخطط لتجريد الشعب الواقع تحت الاحتلال من مقومات هويته الوطنية".

٣- المحاولة الثالثة:

عندما حسمت المنافسة الشاملة بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي والتي استمرت حوالي نصف قرن من الزمن، لصالح النظام لأول، لأسباب لا مجال لسردها، جنح الرأسمال نحو التمركز الشديد واندمجت مؤسساتٌ اقتصادية وإعلامية وشركاتٌ ومصارفُ بعضها ببعض وأخذت تعمل برؤوس أموال خيالية تصل إلى مئات المليارات من الدولارات ويسهم فيها مموّلون من جنسيات مختلفة، وتولد عن ذلك نزوع إلى السيطرة على موارد الأرض وأسواق العالم بأسره.

وقد عُبِّر عن هذا الوضع المستجد بالعولمة وهي صيغةُ مصدر من عولم وتعني جعل الشيء شاملاً العالم كله، وهو ترجمة لكلمة Globalisation الإنكليزية، ولكلمة Mondialisation الفرنسية، وبعضهم أطلق عليها بالعربية الكوكبية أو الكونية وهي بالأخرى أمركة، نسبة إلى الولايات المتحدة، الدولة الرأسمالية بامتياز.

إن العولمة تختلف عن العالمية، إذ أن العالمية طموح إلى الارتقاء بالخصوصي إلى مستوى عالمي. وهذا طموحٌ مشروع في الفكر والأدب والفن وغيره، في حين أن العولمة هي اختراق الآخر وسلبُه خصوصيته ونفيه من العالم.

إن آثار العولمة عديدة وفي كل مجال، بداية من المركز وهي آثار مدمرة: انتشار البطالة، انخفاض مستوى المعيشة، تدهور أجور العاملين، التفاوت في الدخل، التراجع في الخدمات التعليمية والاجتماعية، الدمار البيئي، انهيار الطبقة الوسطى، وبكلمة: العولمة تغني الأغنياء وتفقر الفقراء!

هـذا وللثقافة، واللغة ركيزتها، نصيب وافر، ولا سيما في البلدان المستهدفة كالبلدان العربية. يقول الدكتور عابد الجابري:

"إن الغرب يقول لك افتح الحدود لأننا عـالم واحـدة بلغة واحدة، وهكذا تتآكل اللغة العـربية وتآكـلها يعـني تآكل الذاتية والعقل وعـندها لا يـبقى إلاّ الـثقافة المسطحة التي يصدرونها إلينا".

إن المثال الساطع على مخاطر العولمة مـا نشهده في فلسطين والعراق وأفغانستان، مـن ظلم غاشم ودمار ماحق، وسحق للثقافة واللسان، وهدر لكرامة الإنسان.

ويـرافق هـذا العـدوان الشامل سيل جـارف مـن الأكاذيب: إن المدافع عن أرضه وبيته وكرامته إرهابي أو انتحاري أو أصولي خـارج عـلى القانون، والغاصب أرضَ غيره وسـارق الوطـن مـن أهلـه، وقاتل الصغار والكـبار، والشـيوخ والنساء، وهادم المنازل على سكانها.. رجل سلام، ورجل ديموقراطية!

هـل غـاب المنطق، واستقال العقل، وعم الجنون، وعميت الأبصار والبصائر!

رابعاً – الإقدام والإحجام:

١ – الأصالة والمعاصرة:

إنـنا ونحـن نشـهد هـذه التحديات والأخطـار، نـلحظ أن رد الفعل، ولا سيما في المجـال الثقافي، أضعف من الفعل، فهل يكون ذلـك بسـبب تـوزع الأمة العربية في اثنتين وعشـرين دولـة، ولكل دولة منها مصالحها وسياستها أم لضعف بنية جامعة الدول العربية ومـنظماتها المتخصصـة وهشاشـة الـنظام الإقـليمي العربي، أم لانشغال الجمهور العربي بمعاشـه وحياتـه اليوميـة، أم لتشتت جهود الطـليعة العـربية المـثقفة فـي المشـرق والمغرب؟!

قـد يكـون لكل من هذه الأمور أثر، ولكنـني أود أن أؤكـد أنه لو استطاع العرب خـلال القـرنين الأخيـرين أن يحققوا نهضةً حقيقيـة متوازنة تنقلهم من طور الانفعال إلى طـور الفعـل، مـن حال الاستهلاك إلى حال الانـتاج، من وضع المتلقي إلى وضع الإبداع، ولـو استطاعوا أن يحققوا الحداثة في المنهج والعـلوم والتقـنيات مع المحافظة على الذاتية مثـلما فعـلت اليابـان مـنذ قرون من الزمن وماليـزيا منذ عقود، إذن لكان الجسمُ العربي أمنعَ وأقوى، وعَصياً على الاختراق.

لقـد وقعنا في حيرة من أمرنا ونحن نخـرج مـن عـتمة العهد العثماني والسلطة الاسـتعمارية الغـربية وندخـل عهـد الحرية والاسـتقلال: أن نتمسك بالتراث والأصالة، أم نـأخذ بالحداثـة والمعاصـرة؟ ماذا نأخذ عن الغرب وماذا نترك؟ لقد أضعنا كثيراً من الجهد والوقـت والحبر فـي تناول هذا الموضوع، ووضـعت بإشـراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

"إن قضيتي الأصالة والمعاصرة ليستا نقيضـتين إطلاقـاً. فالأصـالة ليست التقوقع وليست التجمُّدَ عن الماضي، ولكنها تبني قيمه والـتجديد الدائـم فيـه، والمعاصـرة ليست الاستلاب وليست تجديداً محضاً وتبنياً لمعطيات الغرب وقيمه وذوباناً فيه، ولكنها إدخال للعصر فـي الـذات العـربية.. إننا نقبل الغرب ثقافةً وفكـراً وابـتكاراً وعـلماً ونرفضـه عدوانـاً واستعماراً وتذويباً للهوية العربية".

إن الـثقافة العربية ليست قالباً جامداً بـل هي كينونة وصيرورة، ثوابت ومتغيرات، هـي حياة متطورة ونماء وجهد ومعاناة، هي مناعة وقوة وإبداع متجدد.

١ – العولمة والمعلوماتية:

لقـد تزامنت ولادة العولمة مع الثورة العلمية ولا سيما في مجال المعلوماتية ووسائل الإعـلام والاتصـال (الـبرق والهاتف الثابت والمحمـول والإذاعـة المسـموعة والمرئية، والسـينما والتـلفزيون، والفيديـو وأخيـراً

الحاسوب) إن العولمة والمعلوماتية ليستا شيئاً واحداً، أو شيئين متلازمين. ذلك أن العولمة هي حصيلة تطور اقتصادي ومالي وسياسي: مرحلةٌ متطورة ومتقدمة من مراحل الرأسمالية الامبريالية، في حين أن المعلوماتية والثورة العلمية برمتها في المجالات المختلفة كالهندسة الوراثية وهندسة الذرة والإنسان الآلي والأتمتة.. هي حصيلة تطور علمي وتقني.

بيد أن التزامن الذي حصل، أفسح للعولمة أن تستفيد من المعلوماتية وتستخدمها لأغراضها: زيادةُ الإنتاج، سرعة الاتصال، السيطرةُ على الإعلام والمعلومات بغية اقتحام الأسواق، وتوحيد الأذواق، وتنميط الأفكار، والعادات، وجمع الأموال وتحقيق الأرباح الخيالية للشركات العملاقة المتعددة الجنسيات.

لقد تحولت تقانة المعلومات إلى مصدر مهم من مصادر المعرفة والثروة والسلطة، وغدت المعرفة العلمية ضرورة وحاجة، ولن يستطيع شعب بعد اليوم أن يحتفظ بحريته وسيادته على أرضه وقدرته على تقرير مصيره إلاّ إذا اعتمد على قاعدة من العلم النظري والتطبيقي. يقول أحد الفكرين: "إن العلم الذي نقل البشرية من طور إلى آخر هو الذي يقوم حالياً بخلقِ عالمٍ جديد وحضارة جديدة.."

إنه لخطأ تاريخي أن تترك العلوم والتقانات أداةً بيد العولمة الطامعة في التسلط والهيمنة، وإنه لمن حق شعوب الأرض كلها أن تستفيد منها لتثبيت حقوقها وحرياتها وحماية ثقافاتها وحضاراتها ولغاتها من الاندثار والضياع.

إن من واجب الدول والحكومات أن تدرج في أولياتِ خططها وبرامجها التربوية والتعليمية: نقلَ العلوم والتقنيات إلى لغاتها وتوطينَها في عقول أبنائها، الاهتمامَ بالبحث العلمي، تنمية الخيال المبدع، تشجيعَ التعلم الذاتي والتعلم المستمر، الدعوة إلى العمل العلمي الجماعي، توفيرَ الأدوات والمواد والمخابر.. مع المحافظة على قيم التعاون، والعطاء والثقة بالنفس.

خامساً – المواجهة العربية:

١ – ضرورة المواجهة:

ليس من سبيل لنا سوى مواجهة ما نتعرض له، وليس لنا أن نتجاهل الخطر الداهم والتحدي القائم.

إن التغافل عن الخطر خطأ جسيم، لأن رد العدوان أجدى من الاستسلام. إن الصهيونية عقيدة عنصرية، دونها الفاشية والنازية، وهي تحمل في طياتها مشروعاً واسعاً: إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات. إن هذا المشروع مازال في بعض مراحله، ولذا فالعدوان مستمر واغتصاب الأرض وهدم المنازل واقتلاع الأشجار وبناء المستوطنات سيستمر أمداً طويلاً إذا لم توقفه وتحبطه مقاومةٌ باسلة لا تفتر حتى تقتلع أنيابَ الذئب وتبدد أوهامه.

ويضاعف خطرَ إسرائيل استنادُها إلى دعم مطلق من الولايات المتحدة الأمريكية التي تعمل على إقامة امبراطوريتها باندفاعة شديدة براغماتية واسلحة حديثة فاتكة وقوة اقتصادية ومالية طاغية وإعلام موجه لنشر الأضاليل وتشويه الحقائق وتسخر منتجات العلم والتقانة لتحقيق أغراضها، ذلك مع تماثل أطماعها وأهدافها في المنطقة العربية.

إننا نقف أمام عدوان مزدوج: الصهيونية والعولمة: إسرائيل وحاضنتها الولايات المتحدة. فحري بنا أن نفكر معاً ونعمل معاً للصمود في وجه هذا الطوفان حفاظاً على وجودنا وأرضنا ولغتنا وثقافتنا وكرامتنا.

فأي نهج نتبع وأي سبيل نسلك؟

٢ - *المقاومة الثقافية:*

إننا مدعوون إلى مقاومة الغزو الثقافي والتطبيع الثقافي مع العدو الإسرائيلي وذلك بدحض الأضاليل والافتراءات المنافية للحق، والمنطق والتاريخ، والإسراع بالقيام بحملة منظمة تستند إلى خطة ثقافية وتثقيفية تعليمية وإعلامية ترمي في الداخل، داخل الوطن العربي، إلى بث الوعي في العقول وتعزيز الثقة بالنفس وتقوية تمسك الأجيال الشابة بتراثنا المجيد ودفعها إلى بناء مستقبل زاهر، وفي الخارج لتنوير الرأي العام، بكل الطرائق والأساليب المتاحة، بالحقائق التاريخية والراهنة، وتعريف الآخرين، في مختلف البلدان والقارات بالصورة المضيئة للحضارة العربية والطموحات المشروعة للأمة العربية في هذا العصر.

إن العدوان الثقافي ينبغي أن يواجه بمقاومة ثقافية، كما يُواجه العدوانُ السياسي والعسكري بمقاومة تَغُلّ شدَّتَه وتشلّ ثورته.

بالمقاومة وحدها نعزز الصمود العربي ونحفظ الأمن الثقافي لأمتنا.

٣ - *التنمية الثقافية:*

إننا ونحن نخوض معركة قاسية طويلة الأمد، مطالبون بأن نزيد أنفسنا مناعة وقدرة. وهذا لا يتحقق إلا بتنمية ثقافتنا بجعلها تستوعب معطيات العصر العلمية والتقانية، لننتقلَ من مرحلة النقل والاستهلاك إلى مرحلة الفعل والإنتاج.

إن التنمية تختلف عن النمو، فالنمو شأن ذاتي من طبيعة كل حي، والثقافة كائن معنوي حي، وأما التنمية فهي عمل هادف ومقصود ومخطط له ومنظم ومدعم بالجهد والسلطة والمال.

إن التنمية الثقافية تقتضي التخلصَ من الأمية العادية ومن الأمية الحضارية، والعناية بالتربية والتعليم، وبث المعلومات العلمية في أذهان الناشئة وتعويدَهم التفكير العلمي وتشجيع الترجمة ولا سيما أمهات الكتب، والاستعانة بمختلف وسائل النشر والإعلام لنشر المعرفة والدعوة إلى اكتسابها.

والتنمية تشتمل على التأصيل وهو استيعاب المعارف الجديدة والعلوم بمختلف أنواعها وتمثلها كيما تصبح جزءاً من تكويننا النفسي ونسيجنا الثقافي، كما تشتمل على توطين العلم في أرضنا نمارسه تفكيراً وصناعة وابتكاراً، لا أن يبقى أقوالاً تروى وصفحات تحفظ ومنتجات تستخدم، ويبقى العلم غريباً عنا ونحن في غربة عنه، ثم على استنبات هذا العلم بحوثاً تهتم بالبيئة الطبيعية والبشرية وتستهدف التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

هذا وينبغي أن نبذل للغتنا العربية المجيدة العناية الفائقة لتمكينها من استيعاب علوم العصر وفنونه، وذلك بالدراسات اللغوية المفيدة وتحسين طرائق تدريسها وإيجادَ المصطلحات العلمية والحضارية، مستعينين بمنجزات المعلوماتية التي تختصر الزمن وتوفر الجهد.

الخاتمة

إن الثقافة القوية الغازية تلغي ثقافة عاجزة جامدة، ولكنها لا تلغي ثقافة حية تتغذى لتقوى وتقوى لتزهر وتثمر، ترفض الرديء الضار وتقبل الجيد النافع وتحصن نفسها لمواجهة التحديات والأخطار ولا تضعف إزاءها.

وهكذا تكون الثقافة "المقاومة النامية" الوسيلة لتحريرِ العقولِ وتنويرِ الأذهان وشحذ الإرادةِ والطريقَ إلى تحقيقِ المشروعَ النهضوي العربي الذي كان ومازال حُلمَ الأجيال.




أنا والشعر..

شعر: حسان الصاري

لأنـــــي راحــــــل والشـــــعر بـــــاقٍ
تـــــركت الجامحـــــات بـــــلا وثـــــاقِ

وهمـــــت مـــــع الضـــــياء وجـــــئت بـــــرقاً
ألمـــــلم مـــــا تبعـــــثر فـــــي الســـــباق

أقـــــوت الشـــــعر مـــــن أيـــــام عمـــــري
وأرويـــــه بهـــــتان المـــــآقي

يعـــــاندني ويمعـــــن فـــــي جفـــــائي
يشـــــد براحـــــتيه عـــــلى خـــــناقي

أمـــــد لـــــه - إذا يرضـــــى - جفونـــــي
فيصـــــلبني عـــــلى جمـــــر احـــــتراقي

ويتركـــــني ومـــــالي غيـــــر صـــــبر
أجـــــرعه صـــــبوحي واغتـــــباقي

أعاتـــــبه وهـــــل يجـــــدي عـــــتاب؟
وقـــــد شـــــد الـــــرحال عـــــلى العـــــتاق







وخلفني على جرحي مقيماً
وهل جرح يبل بغير راقِ

أماناً يا طيوف الشعر عودي
أما يرضي حرانك ما ألاقي؟

أما يكفيك ما ضيعت مني
وما أنفقت من عمري المراقِ؟

عديني بالوصال ولا تزوري
ومنيني بأنسام رقاق

وجريني بحبل من وعود
فمثلي لا يحن إلى انعتاقِ

لقد أدمنت يا أطياف قيدي
فضميني إليك بلا فراق

ونامي بين أنفاسي وبيني
وثوري إن جنحت إلى النفاق

ورديني إلى الماضي غريباً
وسلي السيف واحتزي التراقي

فمثلك لا يسلم بالدنايا
ولا يرضى بأنصاف المراقي







فوكـــــــر النســـــــــر قمــــــــات تسـامت
وغيمـــــــــات تحــــــــن إلى العـــــــناقِ

*　　　*　　　*

لأن الشـــــــــعر مـــــــــــوت لا يجـــــــاري
وتحـــــــليق بأجـــــــــنحة الـــــــــبراق

وإبحـــــــار عـــــــلى هـــــــوج المـــــــنايا
وإقـــــــدام يعـــــــز عـــــــلى الـــــــلحاق

وإصـــــــحار بوجـــــــه الظـــــــلم كـــــــبراً
وغـــــــزو للســـــــماوات الطـــــــباق

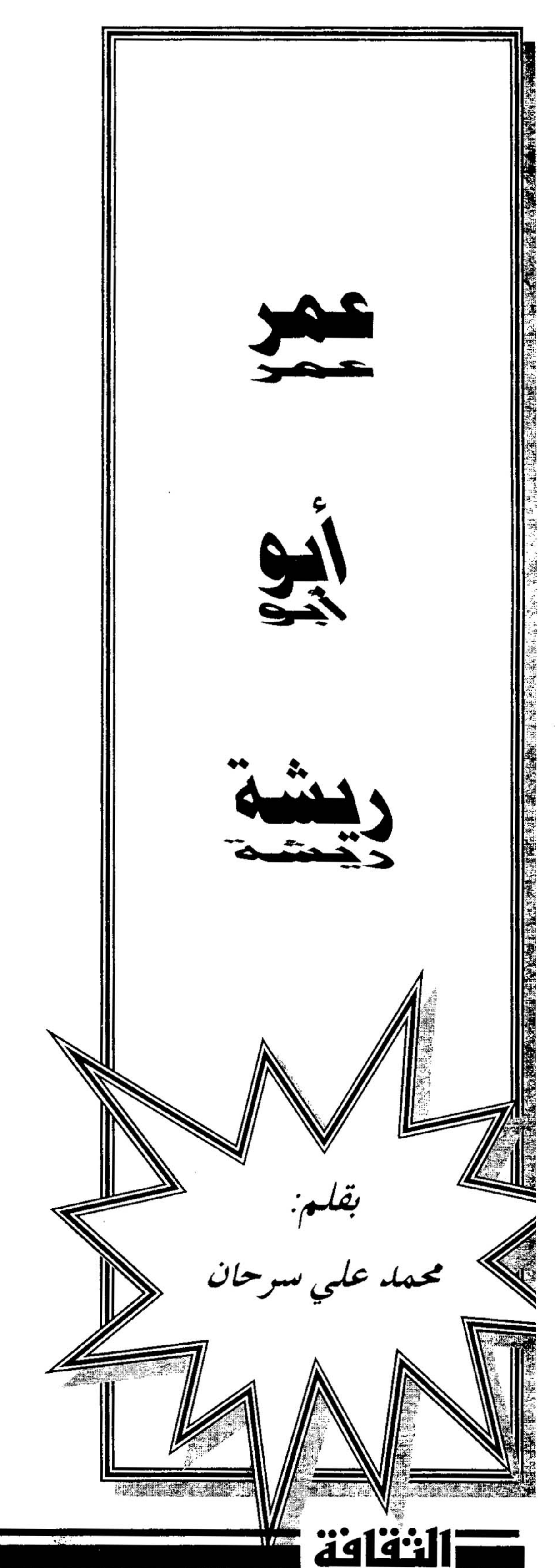
رضـــــــيت الشـــــــعر ينزفـــــــني رويـــــــداً
ويكتبـــــــني بأحـــــــرفه الرشـــــــاق

ويعجنـــــــني بـــــــترب الأرض عـــــــلي
أذوب إذا تفجـــــــرت الســـــــواقي

فدمعـــــــي والدمـــــــاء وطيـــــــن أرضـــــــي
هـــــــي الـــــــباقي إذا عـــــــز الـــــــتلاقي

مطهـــــــرة كغيمـــــــات حيـــــــارى
تـــــــباكر تـــــــربة ضـــــــمت رفـــــــاقي



يصعب على الدارس المتقصي أن يحيط بالحياة الحافلة التي عاشها شاعرنا الكبير الراحل عمر أبو ريشة، يكفي أن نذكر أن هناك أكثر من دراسة استقطبت محوراً واحداً من محاور شعر أبي ريشة ألا وهو (المرأة).

فقد كان أبو ريشة صاحب ريادة ذات تميز في موضوعات ومراحل أساسية من مسيرة الشعر العربي في القرن العشرين:

- في التصميم البنيوي المتكامل للقصيدة، وفي التتابع المنطقي لأبياتها وموضوعها ومضامينها حتى خاتمة البيان.
- في شعر المقطوعة الصغيرة التي تقتصر على فكرة أو إشراقة أو صورة:

قفي لا تخجلي مني
فما اشقاك أشقاني
كلانا مر بالنعمى
مرور المتعب العاني
وغادرها كومض الشوق
في أحداق سكران
لنطو الأمس ونسدل
عليه ذيل نسيان
فإن أبصرتني ابتسمي
وحييني بتحنانِ
وسيري سير حالمة
وقولي كان يهواني

ونحن هنا لا نحاول تقديم بيبلوغرافيا عن حياة الشاعر، فهذه معلومات نشرت أكثر من مرة، فحياته هنا حافلة خاصة وقد عمل في

السلك الدبلوماسي وقد جال في قارات العالم، وقابل الكثير من الشخصيات والزعماء، وكان يتقن عدة لغات أجنبية كالإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية ومعنى الأتقان عنده "دراسة أدب هذه اللغات بنصوصها لا ترجمة ولا مبسطة يسرة" وكان يكتب ويحاضر في العديد من هذه اللغات.

وكانت قضايا الأمة والوطن من الهموم الأساسية للشاعر، خاصة في فترة النضال ضد الاحتلال والاستعمار والانتداب، فقال يذكر الاحتلال:

وصحونا.. فإذا أعناقنا
مثقلات بقيود الأجنبي

وتحدث عن التجزئة والتمزق والظلم فقال:

الشمل بين مشتت
وممزق ومثلم
والأرض مازال ماد
الظالم المتظلم

وكان لأحد أناشيده الوطنية من الذيوع، ما لم يكن لسواه، إذ تلقفته أسماعهم وتداولته ألسنتهم وحفظته قلوبهم.. وهذا بعض منه:

في سبيل المجد والأوطان، نحيا ونبيد
كلنا ذو همة شماء، جبار عنيد
لا تطيق السادة، الأحرار أطواق الحديد
إن عيش الذل والأرهاب أولى بالعبيد

لكنه لم يقتصر على الأناشيد وحدها، فقد نظم القصائد والمقطوعات الكثيرة، يشيد فيها بالوطن، ويشيد بما في ربوعه من جمال، ويعدد ما يملكه من عناصر الخير والعطاء، ويهتف مسحوراً بما لديه من فتنة:

يا بلادي وأنت نهلة ظمآن
وشبابة على فم شاعر

ويؤكد عصر أبو ريشة على الدور الحضاري والرسالة الإنسانية للعرب فيقول:

أنا من بقايا أمة
هي والعلى من توأم
مرت على الدنيا مرور
القطر بالحقل الظمي
وتناقلت آيات رحمتها
شفاه الأنجم

ويبين من ناحية ثانية موقف العالم المرحب بما قدمته الأمة العربية إلى الدنيا كلها من قيم عليا، ومثل نبيلة حملها النبي العربي صلى الله عليه وسلم منارة حب من قلب الصحراء المقفرة إلى آفاق العالم الواسعة، ولم تكن حضارة العرب مادية فقط، وإنما كانت مادية وروحية في آن واحد.

من هنا شق الهدى أكمامه
وتهادى موكباً في موكب
وأتى الدنيا فرقت طربا
وانتشت من عبقه المنسكب
وتغذت بالمروءات التي
عرفتها في فتاه العربي
أصيد ضاقت به صحراؤه
فأعدته لأفق أرحب

هب للفتح فأدمى تحته

حافر المهر جبين الكوكب

كان أبو ريشة مدرسة في شعره من حيث التأكيد على الكبرياء وعزة النفس، وحب المجد، وعشق المروءة والمعالي، وقد كان التاريخ أحد المصادر الموجبة بمثل هذه المشاعر والأخلاق، إذ ترسخت في نفسه صورة الأمجاد العربية، يوم كان العرب في فجر عزتهم، وازدهار حضارتهم فكان الإباء والشمم والنخوة، رايات عز،ترفرف على جدار كل بيت وفوق عرف كل حصان.

وكانت الصحراء العربية وروحها البدوية العنيفة أهم الينابيع التي استقى منها تلك القيم، لذلك فإن صور الصحراء وأسلحتها وملامحها، تتزاكى وهاجة في شعره، فيهتف بالرمال عبر نداء جريح:

أوقفي الركب يا رمال البيد

إنه تاه في مداك البعيد

ظمئت نوقه وجف فم الحادي

وغصت لهاته بالنشيد

والأشداء يلهثون كخيل الغزو

عادت من يومها المشهود

وقد رسم الشاعر من خلال الإشادة بنماذج مثالية وعامة صوراً شعرية متألقة للشهيد والفدائي والجندي، ولم يقصد بهم أشخاصاً محدودين أو معروفين يمتلكون أسماء وتواريخ وإنما رسم صورة مثالية لكل واحد منهم.

وكان عمر أبو ريشة من الأصوات الداعية لتحقيق الوحدة العربية ومواجهة التحديات وضمان قوة قادرة أمام القوى المعادية، وقد اتفق معظم المفكرين والأدباء الذين برزوا في فترة ما بين الحربين - ومنهم أبو ريشة - على المناداة بتحقيق الوحدة العربية والتغني بالعرب والعروبة:

وجدودي المح الدهر على

ذكرهم يطوي جناحيه جلالا

بوركت صحراؤهم كم زخرت

بالمروءات رياحا ورمالا

حملوا الشرق سنا وسنى

وتخطوا ملعب الغرب نضالا

فنما المجد على آثارهم

وتحدى بعدما زالوا الزوالا

هؤلاء الصيد قومي فانتسب

إن تجد أكرم من قومي رجالا

وكان للشاعر اهتمام كبير بالقضية الفلسطينية، ونذكر بالمناسبة أن أمه من مواليد عكا، وقد شكلت هذه القضية أحد الموضوعات الأساسية في شعره، وكان يستثير في شعره الهمم العربية للدفاع عن عروبة فلسطين، وهو يقول في قصيدة (عرس المجد):

يا روابي القدس يا مجلى السنا

يا رؤى عيسى على جفن النبي

دون عليائك في الرحب المدى

صهلة الخيل ووهج القضب

وإذا وقفنا مع البعد الاجتماعي لشعر أبي ريشة فنجد أن موضوعات قصائده كانت

مستقلة أي أنه لا يخلط الخاص بالعام والفردي بالجماعي والمجرد بالمحسوس والبعد الاجتماعي بالبعد السياسي، والقومي بالعاطفي، فنحن لا نجد لقصائده الوطنية أبعاداً إجتماعية، ولا لقصائده الاجتماعية أبعاداً وطنية أو قومية، وهكذا تكاد موضوعاته تبدو مستقلة، وهذا ما دعاه إلى تبويب ديوانه في طبعته الأخيرة بحسب أغراضه ولا نستثني من هذا إلاَّ قلة نادرة.

لقد نأى أبو ريشة عن المنحى الوعظي القائم على الخطابية والذي رأيناه عند صالح جودت أو عند أبي شبكة أو حتى عند نزار قباني، وقد ساعد أبو ريشة على التحرير منه اهتمامه بالسرد القصصي في جهة وتعمقه في التحليل النفسي من جهة أخرى، ففي إحدى قصائده تتحدث امرأة عن تأنيب الضمير والتشفي من النفس بتعذيبها واحتساء السم حتى يتبلد كل حسن فيها بعد أن ضلت طريقها القويم وصارت في الدروب الموحشة.

حثثت خطاي الحمر على هيكل القدس
وفي حماة الأرجاسي كفرت عن رجسي
دعوني أعب السم في أكؤس الورى
واقضي على تلك البقية من حسي

وللطبيعة في شعر أبي ريشة قصائد وقصائد، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة أو الهامدة.

والنموذج الأمثل لقصائده في النوع الثاني مطولته (معبد كاجراو) الذي زاره في الهند متأملاً تماثيله:

من منكما وهب الأمان
لأخيه، أنت أم الزمان؟
شقيت على أعتابك الغارات
وانتحرت هوان
وتمزقت أملاكها
تاجا ونضّت صولجان
وبقيت وحدك فوق هذا
الصخر وقفة عنفوان

وفي قصيدته (أوغاريت) المدينة السورية التي اكتشفت فيها أو أبجدية في التاريخ يقول:

اقبلت فالتفت الزمان
تلفت المتوهم
والموت دونك واقف
في زلة المستسلم
فيم التمرد والوثوب
على القضاء المبرم
أتعبت من حلم الخلود
فشئت أن لا تحلمي

وفي قصيدته الرائعة (طلل) يقول:

لقد تعبت منه كف الدمار
وباتت تخاف اذى لمسه
هنا ينفض الوهم أشباحه
وينتحر الموت في يأسه

وفي قصائده عن الطبيعة الحية تتألق قصيدته الشهيرة عن النسر الذي اعتبره الشعراء رمزاً للشموخ والإباء والكبرياء:

أصبح السفح ملعبا النسور
فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري

إن لــــلجرح صــــيحة فابعـــثيها

فــــي ســـماع الـــدنى فحيــح سـعير

واطــرحي الكــبرياء شــلوا مــدمى

تحــت أقـــدام دهـــرك الســـكير

لمـلمي يـــا ذرى الجبال بقايا النسر

وارمـــي بهـــا صــدور العصـــور

إنـــه لـــم يعـد يكحـل جفـن النجم

تيهـــاً بريشــــة المنــــثور

أمـــا عـــن شـــعر المناسبات لدى أبي ريشة، فالمعروف أن آراء النقاد اختلفت حول شـعر المناسـبات العارضة والأحداث الطارئة وقــد بــدأ الــرفض لهذا النوع من الشعر مع ظهور حركة التجديد التي قادها منذ أوائل هذا القـرن عـدد من النقاد أمثال ميخائيل نعيمة، والعقـاد، وشكري، والمازني، وطه حسين إذ اعتـبروه افتعالاً للشعر واحتلاباً له وأنه يفقد الشاعر حرية الإبداع والحافز الداخلي الذي لا غايـة له، أمـا عند أبي ريشة فيمكن اعتبار معظـم قصائده من شعر المناسبات، خاصة إذا اتفقـنا على أن هذا الشعر هو الذي يكتب عادة ليـلقى فـي المحـافل العامـة علـى مسامع الجماهيـر، فقصيدته (عرس المجد) كانت في جـلاء الفرنسـيين عن سورية، والعشرات عن القضـية الفلسـطينية مرتبطة بالمناسبات مع الإشــارة إلى أن الشــاعر تجــاوز الأحداث الخصوصية الضيقة وعالج القضايا العامة من زاوية وطنية أو قومية شاملة.

كمـــا أنـــه كـتب في شعر المناسبات العامــة مــثل شعر التكريم أو الرثاء كالأخطل الصغير والمعري، والمتنبي، والصافي النجفي، وأحـد شـوقي، وحافظ إبراهيم والقصائد التي قيلت في زعماء سياسيين أو شهداء كقصائده فــي سعد الله الجابري وإبراهيم هنانو، وسعيد العاص، وفي رثاء والده له أبيات مؤثرة كتبت على قبره:

نـــاداك تحـــناني فمـــا أســـمعك

فـــاذهب فـــداك الشـــوق قلـــبي معك

صـــرنا معـــا حيـــناً وخلفتـــني

وحـــدي عـــلى الـــدرب الـــذي ضيعك

أرنـــــو إلى الدنيـــــا وأفاقهـــــا

فمـــا أراهـــا جـــاوزت مضـــجعك

ونظم أبو ريشة الشعر القصصي، وقد اتخذ الشاعر الأسلوب القصصي وسيلة لعرض موقفـه القومـي، وهكذا يمكن أن نصف هذه القصـائد بـ (القصة الشعرية) ومنها قصائده: شـقية، ليلة وكأس، جاندارك. ومنها قصيدته الشهيرة في ديك الجن الحمصي.

أمـا فــي المسـرح الشـعري فكانت محـاولات أبــي ريشــة مــبكرة، مــنذ نهاية العشرينات ومن مسرحياته الشعرية (ذي قار و محكمـة الشـعراء و الطوفـان وتـاج محل وسميراميس وأوبريت عذاب).

أمـا القصائد الملحمية فهي روائع في مسيرة الشاعر.

ومن شعره الملحمي قصيدته الشهيرة (محمد) الذي يستهلها الشاعر بهذا المطلع:

أي نجـــوى مخضـــلة الـــنعماء

رددتهـــا حـــناجر الصـــحراء

وهناك قصيدة (خالد) التي يبدؤها بـــ:

لا تنامي يا راويات الزمان
فهو لولاك موجة من دخان
تتوالى عصوره وبها منك
ظلال طرية الألوان
أبدا تبسم الحياة عليها
بسمة المطمئن للحدثان
اسمعيني حفيف أجنحة الإلهام
من أفقك القصي الداني
وانثري حولي الأساطير فالروح
على شبه غصة الظمآن
حسبها أن أردها لك من قلبي
صلاة ومن شفاهي أغاني

نصل أخيراً إلى شعر عمر أبي ريشة والمرأة وهو محور مهم وأساسي في سيرته الشعرية، وفي تقديره المرأة الأنثى، كإنسان لا نجد في آلاف الأبيَات التي نظمها إساءة جارحة لها.. ولعل أقسى ما وجه إليها هذان البيتان:

حكاية حبنا ختمت
فما أشجي وما أقسى
جميل منك أن تعفى
وأجمل منه أن أنسى

وهكذا نجد أن الشاعر لم يعرّ المرأة، ولم يجزئها، كما لم تكن لديه مثار عاطفة ولا نزوة عيون، ولا دمية يلهو بها، إنما المرأة عنده دنيا من الألق والعبق والجمال اللا محدود الذي أبى عليه كبره وولعه بالجمال المطلق أن يشوهه بالتحديد والاجتراء:

عرفت بك الله بعد الضلال
فدليل البديع على المبدع

وقوله:

لست أنت التي أضمك بل دنيا
فتون وعالماً علويا

وقوله:

هويتك في غصة المؤمن
إلى جرعة من فم الكوثر

وهو يقول:

"عندما تقول المرأة.. أو شيء يجول في خاطري الجمال والجمال له قدسية عندي، لذلك ففي كل ما كتبت عن المرأة لم أجرحها قاسيت عنها، كثيراً من الشعراء يعري المرأة، وفي رأيي يشوهون جمالها..

وانطلاقاً من احترام الشاعر للمرأة فقد كان له رأي خاص في الزواج:

"الزواج عند الأكثرية الساحقة من الناس أشباع للجوع الجنسي وتأمين حياة مستقرة، ولكنني أرى فيه ثورة على الموت وانتصارها عليه، فنحن نتزوج لننجب وما ننجبه هو امتداد لوجودنا، فالزواج من هذه الناحية أقدس رباط بين الرجل والمرأة".

في الطائرة التقى امرأة حسناء فقال فيها:

وثـبت تسـتقرب الـنجم مجـالا

وتهـاوت تحسـب الذيـل احـتيالا

وحيـالي ريـا ووجـه باهـر

أجمـال؟ جـل أن يسـمى جمـالا

قـلت يـا حسـناء مـن أنـت ومن

أي دوح أفـرع الغصـن ومـالا

فأجـابت: أنـا مـن أندلـس

جـنة الدنيـا عـبيرا وظـلالا

وجـدودي ألمـح الدهـر عـلى

آثـارهم يطـوي جـناحيه جـلالا

مـلأوا الشـرق سـناء وسـنى

وتخطـوا مـلعب الغـرب نضـالا

ولما كان جمال المرأة إلى زوال، فهذا يحـز فـي نفـس الشاعر الذي يهوى الجمال المطلق:

انهضـي انهضـي فلسـت أطيـق

الحسـن تـذوي أزهـاره فـي يديـا

ويقول في قصيدته (عذراء):

واليـوم جئـتك لا صـبا ولا كـلفا

بـل لـلجمال الـذي يـذوي اعـريه

وإذا كان للمرأة في حياة الشعراء أثر بـارز منذ الجاهلية حتى اليوم.. وإذا كان هذا الأثـر متفاوتاً أو مختلفاً بين شاعر وآخر، فإن تجـربة عمـر أبـي ريشـة مع المرأة تتعدى المظهـر والـبهرج، على الرغم من أن بعض الـنقاد لا يقبـلون الحكـم المطلق في مرحلة الشباب يتسكع على أرصفة الحب حيث تواكب الأنـثى مسيرة حياته باستمرار فيغويه شيطان الشعر للاقتراب من التوصيف الحسي:

تـزلق الطـرف عـلى عـنقها

وغـاب فـي فجوتهـا يسـكر

وخصـل الشـعر عـلى خصـرها

فواحـة تنتشـر مـا تنتشـر

ولكـنه سـرعان ما يخرج من غواية الغريزة إلى لقاء الروح:

فـتعالي نطـلق الـروحين مـن

صـورة الوهـم ورئـي مـا وراءها

كملاكيـن إذا مـا الـتقيا

مـا تعـدت ثـورة الشـوق الشفاها

فـنعب الكـأس ريـا بالمـنى

ونـبقي فـي فـم الطهـر شـذاها

وهـناك مثال آخر عن غواية المرأة، وهو فيه لا يخلق لوحته الشعرية اعتماداً على التناسق بين ألوان مختلفة، بل إنه يأخذ اللون الواحـد ويغيـر فـي شدته، ومن ثم يعمد إلى التشـكيل اللوني، وهذا يحتاج إلى مهارة أكبر ولا سـيما إذا كـانت الألـوان وحدات لغوية وصـوراً فـنية ذات دلالة تنبع من نبع واحد. يقـول في قصيدة (حكاية سمار) وهو يخاطب فتاة هي مثار الفتنة وبدعة الغواية:

أقبـلت مـن صـدر الربيع وقلت لي

أتحبـني.. أتحبـني يـا شـاعري

أنا بدعة الدنيا وسر خلودها
هتكت على عرى الحياة ستائري
حسناء لا تتقربي من خاطري
طوى البساط ونام جفن السامر

وفي سياق حديثه عن الحب يقول في قصيدته (لنا الحب):

لنا الحب والكأس والمزهر
وللناس منا الصدى المسكر
وخلف ملاعبنا أنجم
على شوق أو بتنا تسهر
فأخلاقنا يقظات الحياة
ووحي النفوس التي تشعر
ونحن من الأزل المطمئن
تبشر في يومنا الأعصر

أما صورة الحبيبة في شعر أبي ريشة، فهي كما يراها الرومانسيون ذات اتجاهين متقابلين، فهي إما ملاك طاهر وإما شيطان مشؤوم:

طوقتها يا للشذا
مطوقاً مقبلا
فما انثنت حائرة
ولا رنت تدللا
ولا درت وجنتها
من خجل تبدلا
كأنها في طهرها
أطهر من أن تخجلا

وعلى الرغم من أن عمر أبا ريشة ليس ظاهرة فردية في اهتمامه بالمرأة (سبقه في القديم عمر بن أبي ربيعة وفي الحاضر نزار قباني) إلاّ أنه لم يقلد الآخرين في هذا الميدان، ولم يسر في ركابهم وظل على المدى الطويل منفرداً بخصائص كثيرة تميزه عن الشعراء الآخرين، فقد قسم حياته - كما يقول في شعره - قسمين متعادلين، وجعل عمره في كفتين متوازيتين، جمع الدنيا كلها في كفة، ووضع المرأة وحدها في الكفة الأخرى، وحمل ميزانه على حصان شعره ومضى في رحلته، فكانت رحلة شاقة، ملؤها الغصص الحرّى، والدموع، إذ نفد زاده، وأوشك على الهلاك، لولا تعلله بالحداء يترنم به شعراً ويتغنى به قوافي وأنغاماً:

هي والدنيا وما بينهما
غصصي الحرى، وأهوائي العنيدة
رحلة للشوق لم أبلغ بها
ما أرتني من فراديس بعيدة
طال دربي وانتهى زادي له
ومضى عمري على ظهر قصيدة




حنينٌ إلى الذكريات

شعر : عبد المجيد عرفة

غدوتُ مثلَ الذي في صدرِه حرَجٌ
إذا تصعّدَ في العلياءِ يختنقُ

يطيبُ لي العيشُ في وادي حماةَ وفي
ضِفافِ عاصيهِ عَذْبُ الماءِ يصطفِقُ

والحورُ يهمِسُ في أُذني وتلثُمني
نسائمٌ جانحاها الوردُ والحبقُ

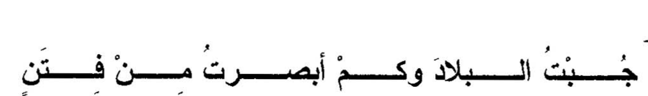
تسري معَ الصبح مِنْ وادي حماةَ ومن
أريجها ذكرياتُ الأمسِ تنطلقُ

ودائراتٌ على العاصي تُسامرُني
كالعاشقين إلى أنْ يبسِمَ الشَّفَقُ

إن غِبْتُ عنْ بلدي يوماً أَذُبْ ألماً
ويكبِرُ الهمُّ في جنبيَّ والنَزَقُ

فلا تلُمْني إذا روحي بها التصقَت
فالروحُ بالجسمِ منذُ البدءِ تلتصقُ



جُـــبْتُ الـــبلادَ وكـــمْ أبصـــرتُ مِـــنْ فِـــتَنٍ
تُغـــــري؛ وآياتُهـــــا بالحُسْـــــنِ تأتـــلِقُ
وكـــــمْ تنازَعَـــــني شـــــوقي إلى بَـــلدي
وكـــــمْ تناهبـــــني التســـــهيدُ والأرَقُ
أعيـــشُ فـــي غربـــتي جســـماً وفـــي وطـــني
يعيـــشُ قلـــبي ومـــا بالـــبُعْدِ نفـــترِقُ
يهيـــمُ فـــي طُـــرقِ الماضـــي ويكـــتبُ لـــي
عـــن ذكـــرياتي وإنْ لـــم يُسْـــعِفِ الـــورَقُ
فأقـــرأ الصـــدق يـــروي عـــن طفولتـــنا
ولـلـــبراءةِ فـــي أحنائـــنا ألـــقُ
كأنّـــني بيـــن أتـــرابي أُســـامرُهُمْ
مـــع العشـــيّاتِ لا هـــمٌّ ولا قـــلقُ
فكـــمْ بـــلا ســـببٍ نُذكـــي مشـــاجرةً
وكـــمْ بـــلا ســـببٍ نصـــفو ونـــتَّفِقُ
لـــم يســـلُبِ الحقـــدُ شـــيئاً مـــن ســـعادتِنا
ولـــم يُصِـــبْ قلبـــنا مِـــنْ بطشِـــهِ رَهَـــقُ
ومـــا عرفـــناهُ إلاَّ عـــند مَـــنْ حقـــدوا
وســـعَّروا نـــارَهُ فـــي العيـــش فاحـــترقوا
ومـــا (حمـــاةُ) لـــه أرضٌ ولا ســـكنٌ
فأهـــلُها مِـــنْ بـــذورِ الطيـــبِ قـــد خُـــلِقوا
قفـــوتُ أفعـــالَهُمْ فـــازداد بـــي شَـــرَفٌ
لمَّـــا نـــأى عـــن فـــؤادي الـــزّيفُ والمَـــلَقُ




إلى الــــتي مــــلكتْ روحــــي محبَّــــتُها
فصـــرتُ ممّـــنْ بهـــا هـــاموا ومَـــنْ عشـــقوا

إلى الــــتي مــــلأتْ بالــــنورِ باصــــرتي
حــــتى تــــألَّقَ فيهــــا الصــــبحُ والغســــقُ

إلى الأُلى عــــلّموني مــــن أصــــالتها
معــــنى الوفــــاء وفــــي تعــــليمِهِمْ صــــدقوا

إلى الذيــــن لغيــــر الله مــــا ســــجدوا
وغيــــر ديــــنِ بُــــناةِ المجــــدِ مــــا اعتــــنقوا

إلى حمــــاةَ وأهــــليها وفتنــــتها
اســــوق شــــعري وبالأشــــواق أحــــترقُ

وفــــي نســــائمها أُطفــــي الــــلظى وعــــلى
ضــــفافها أزرعُ الــــنجوى فتنبــــثقُ

أعــــودُ أطــــرقُ أبــــوابَ الــــرجاءِ بهــــا
ولســــتُ أوّل مَــــنْ عــــادوا ومــــنْ طــــرقوا

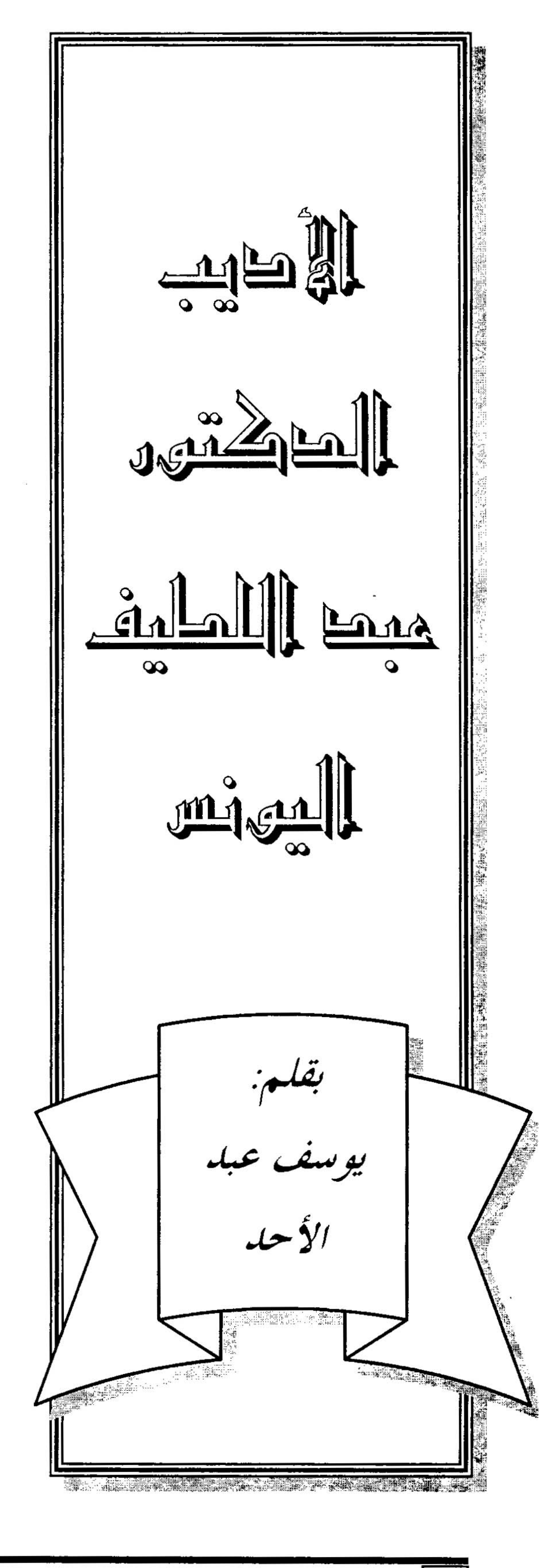
ذقْــــتُ الــــبِعادَ وكــــأسُ العيــــشِ جرَّعــــني
مــــرارةَ الــــبينِ وانقــــادتْ لــــيَ الطُــــرُقُ

فليتــــني مــــا هجــــرتُ الــــدارَ عــــن طمَــــعٍ
فــــي العيــــشِ؛ والصــــبُّ يكفــــي قلــــبهُ الــــرمَقُ

وليــــتها تــــرجِعُ الأيّــــامُ باســــمةً
وبالــــبراءةِ والأحــــلامِ تأتــــلقُ

لأنهــــلَ الحُــــبَّ مــــن وادي حمــــاةَ ومــــنْ
رياضِــــها للأمــــاني الخُضْــــرِ أنطــــلقُ



الدكتور عبد اللطيف اليونس مفكر كبير، وسياسي لامع، وصحافي جريء وخطيب مفوّه، وناقد بارع، وشاعر مبدع وقد اجتمعت هذه المواهب كلها في شخصيته الفذّة.

ولد عبد اللطيف اليونس في بلدة "بيت الشيخ يونس" التي تقع في الجنوب الغربي من مدينة (صافيتا) بمحافظة طرطوس سنة ١٩١٤ وبلدته تحمل اسم عميد الأسرة العريقة والشهيرة بمركزها الديني والزمني المرموق، وهي تنتمي إلى (آل ياسين) الكرام ويمتد نسبها إلى "محمد بن اسحق التنوخي" أمير اللاذقية.

نشأ عبد اللطيف في بيت عريق أنجب العلماء والساسة والمجاهدين.

منذ طفولته وكان أساتذته يعهدون إليه بأن يخطب باسم الطلاب في المواقف الرسمية، وكانوا يعدّون له الكلمة سواء بالعربية أم الفرنسية، ثم ظهرت موهبته بالارتجال.

تلقى تعليمه على يد العلامة الشيخ عبد الرحمن الخير (١٩٠٤- ١٩٨٦) والعلامة جبر ضومط (١٨٥٩- ١٩٣٠).

توفي والده وهو لا يزال في الصفوف الابتدائية.

كان والده شيخاً ورعاً تقياً، جليل القدر، رفيع المقام، وكان برّاً ومحساناً.

تابع القراءة والمطالعة رغم الظروف الصعبة التي واجهته بوفاة والده، حتى أصبح مستواه الثقافي لا يقل عن مستوى خريجي الجامعات.

لقد تأثر بطائفة من الأدباء الكبار أمثال الأمير شكيب أرسلان وطه حسين ومحمد علي الحوماني ونجيب الريس ومن الشعراء المتنبي وأحمد شوقي وبدوي الجبل وبشارة الخوري وعمر أبو ريشة وإيليا أبو ماضي ونديم محمد والشاعر القروي وحامد حسن وغيرهم.

اقترن بابنة عمه في سن مبكرة وأنجبت له ابنتين هما (أمل) و (سمية).

عَمل في التدريس في بلدة (وادي العيون) مدة سنة واحدة، ثم عمل رئيساً لتحرير جريدة (صوت الحق) التي كانت تصدر في اللاذقية، وكان صاحب الامتياز (عابد جمال الدين).

وفي عام ١٩٤٧كلفه رئيس الجمهورية السابق شكري القوتلي الذهاب إلى أمريكا الجنوبية والبرازيل والأرجنتين للدعاية للقضية الفلسطينية، فلبى الدعوة وزار فنزويلا والبرازيل والأرجنتين والأورغواي وتشيلي وألقى العديد من المحاضرات في الأندية والمحافل العربية، كشف فيها أطماع الصهيونية في الوطن العربي فنالت هذه الخطب إعجاب وتقدير المغتربين.

فاز في أواخر عام ١٩٤٩ بعضوية مجلس النواب عن منطقة صافيتا، وقد أحدث فوزه ضجة كبرى لأنه وقف في وجه الاقطاعية وتغلب عليها وفاز بثقة شعبية كبيرة، وبهذه المناسبة أرسل إليه الشاعر "نديم محمد" هذين البيتين تعبيراً عن الواقع الاجتماعي في ذلك الظرف:

تهنئتي.. لا بالذي أخذها
وتركها سيان عند الرجال
لكنْ.. لدرسٍ بالغٍ وحده
لقنته وحدك أهل الضلال

وفاز اليونس للمرة الثانية في الانتخابات النيابية عام ١٩٥٤وقام خلال الفترة ١٩٥٤- ١٩٥٨ بنشاط كبير في مختلف المجالات.

وفي عام ١٩٦١ فاز للمرة الثالثة بالنيابة عن منطقة صافيتا.

وفي مطلع عام ١٩٦٤ سافر إلى أمريكا الجنوبية وزار خلالها فنزويلا والأرجنتين وتشيلي والبرازيل وأسس في (سان باولو) جريدة (الأنباء) وكرّسها للدعوة إلى القضايا العربية والدفاع عن حقوق الأمة والوطن وقضية فلسطين بصورة خاصة.

وفي عام ١٩٧٥ تنازل عن امتياز الجريدة لصديقه الأستاذ نواف حردان.

ثم انتقل من البرازيل إلى الأرجنتين تلبية لدعوة المغتربين فأسس فيها جريدة "الوطن" التي صدرت باللغتين العربية والإسبانية.

<u>*نيله شهادة الدكتوراه من الجامعة الكاثوليكية*</u>

دعت الجامعة الكاثوليكية في الأرجنتين الأديب الكبير عبد اللطيف اليونس لإلقاء محاضرات عن "الحضارة العربية وأثرها في الجمهور" فوقف الدكتور فوسبيري رئيس الجامعة وارتجل خطاباً تحدث فيه عن شخصية

الأستاذ اليونس وأثنى على سعة اطلاعه وغزارة معلوماته قال:

"نحن أمام علامة سمعناه سابقاً، وبهذه المناسبة يشرفنا أن تقرر جامعتنا أن تمنحه شهادة الدكتوراه وتعتبره عضواً في جامعتنا وفي الجامعة الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية"، ثم قدّم له براءة الشهادة وسط عاصفة من التصفيق والتكريم والتهاني الحارة.

نال جائزة جبران خليل جبران العالمية

منحت لجنة رابطة إحياء التراث العربي في أوستراليا برئاسة الأديب كامل المر جائزة جبران العالمية إلى الأديب الدكتور عبد اللطيف اليونس تقديراً لشخصه الكريم ومواقفه المشهودة وجهوده الإبداعية في مختلف ميادين الحياة ومؤلفاته الأدبية والمهجرية المتميزة.

والجائزة عبارة عن ميدالية ذهبية ملونة معلقة بأشرطة حريرية بلون العلم العربي ولوحة براءَة من الرابطة مكتوبة بخط ذهبي جميل وبصورة جبران، وقد تأسست هذه الرابطة عام ١٩٨١ ومنحت هذه الجائزة لأكثر من خمسين شخصية أدبية وفكرية وفنية وعلمية في أوستراليا والوطن العربي.

تكريم الدكتور عبد اللطيف اليونس

برعاية السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السابقة وبتاريخ ١٩٩٣/٤/٢٤ أقامت مجلة الثقافة لمنشئها الأديب والشاعر مدحة عكاش حفلاً تكريمياً للدكتور عبد اللطيف اليونس بمناسبة نيله جائزة جبران العالمية وذلك في قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد، وألقيت في هذه المناسبة كلمات وقصائد لعدد من الكتاب والشعراء وهم:

حامد حسن، حسين حموي، الدكتور جورج جبور، نعمان حرب، رضا رجب، قمر كيلاني، جابر خير بك، سليمان سلمان، وأنور الجندي، حيث أشادت الكلمات والقصائد بالدور البارز الذي لعبه الأديب المحتفى به على الصعيد الاجتماعي والسياسي والأدبي وإسهاماته في العمل في مختلف ميادين الحياة.

وقد تحول حفل التكريم إلى تظاهرة شعبية، ثم تمّ تقليد الدكتور اليونس الوسام.

مؤلفات الدكتور عبد اللطيف اليونس

١- الجبل المريض - ١٩٤٤.
٢- ثورة الشيخ صالح العلي - ١٩٤٧ - طبعة ثانية ١٩٥٩ - وزارة الثقافة.
٣- بين عالمين - مجموعة أحاديث ومقالات - ١٩٥٥.
٤- شكري القوتلي - حياة رجل في تاريخ أمه - دار المعارف مصر - ١٩٥٩.
٥- المغتربون - مطبعة العرفان - صيدا ١٩٦٤.
٦- شفيق معلوف شاعر عبقر وأهازيج الفن - بونس آيرس الأرجنتين ١٩٦٦.

٧- زكي قنصل شاعر الحب والحنين - بونس آيرس ١٩٦٧.
٨- من صميم الأحداث ١٩٦٧.
٩- مذكرات الدكتور عبد اللطيف اليونس - دمشق ١٩٩٣.

الجرائد التي أسسها

١- جريدة (صوت الحق) في اللاذقية عام ١٩٣٨ - ١٩٣٩.
٢- جريدة (الأنباء) صدر العدد الأول باريخ ١٩٦٩/٣/١٩ في مدينة (سان باولو) البرازيل، وصدرت باللغتين العربية والبرتغالية.
٣- جريدة (الوطن) صدر العدد الأول بتاريخ ١٩٧٨/٨/١٦ في (بونس آيرس) الأرجنتين بالعربية والإسبانية.

دراسات عنه

١- كتاب الدكتور عبد اللطيف اليونس أديباً، سياسياً، صحافيا - بقلم الأديب نعمان حرب ١٩٨٨.
٢- الدكتور عبد اللطيف اليونس وأدب المذكرات - بقلم الأديب عيسى فتوح جريدة البعث ١٩٩٣/٢/٢١ رقم العدد ٩٠٧٢.
٣- جريدة الثقافة الأسبوعية تاريخ ٢/٢٧/ ١٩٩٣- بقلم سعيد أبو الحسن.
٤- جريدة تشرين تاريخ ١٩٩٣/٤/٦ - بقلم علي القيم.
٥- جريدة الثقافة الأسبوعية تاريخ ١/٩/ ١٩٩٣ بقلم الأديبة السيدة سمية اليونس.
٦- جريدة الثقافة الأسبوعية تاريخ ١/٢٣/ ١٩٩٣ بقلم الأديبة السيدة نجوى حسن.
٧- جريدة الثقافة الأسبوعية تاريخ ١/٣٠/ ١٩٩٣ بقلم الأديبة السيدة وداد قباني.
٨- جريدة الثورة تاريخ ١٩٩٢/١٢/٢٦ بقلم هاني الخير.
٩- مجلة المصور الجديد تاريخ شباط ١٩٩٣ بقلم سمير عربش.
١٠- جريدة الثقافة الأسبوعية تاريخ ٤/٣/ ١٩٩٣ بقلم الدكتور خير الدين عبد الصمد.
١١- جريدة الثورة تاريخ ١٩٩٣/٤/١١ بقلم حيدر علي.
١٢- جريدة حمص تاريخ ١٩٩٣/٤/٩ بقلم رامز شقرا.
١٣- مجلة النورس العددان ٢٦- ٢٧ / ١٩٩٣ بقلم السيدة تريز دير عطاني.
١٤- جريدة الثورة تاريخ ١٩٩٣/٦/٣ بقلم السيدة أنيسة عبود.
١٥- جريدة الأسبوع الأدبي ٢٠٠٣/٧/١٢ عدد ٨٦٦ - بقلم نعمان حرب.




يا بيتها!

شعر: نظير جابر

سـبحانَ ربِّي واحداً أحدا
أحمدهُ خلاّقةً صمدا
يزخرفُ الإنسان في صورةٍ
أصفى سناءً من بريقِ الندى
رأيتها تخطرُ في حلَّةٍ
هلاّ رأيتَ الفُلَّ والعسجدا؟
أبدعها الرحمنُ أعجوبةً
وصاغ من وجنتها فرقدا
وزيَّن الصَّدرَ الشَّهيَّ الرّؤى
نهدانِ في غاباتها عربدا
تلألأ الحسنُ بهيَّ الشّذى
في خصرها يومين واستشهدا
ترنّم البلبلُ في صوتها
والصّبحُ في أجفانها غرّدا
يبتسم الوردُ على ثغرها
وتركع الشهبُ لها سُجَّدا

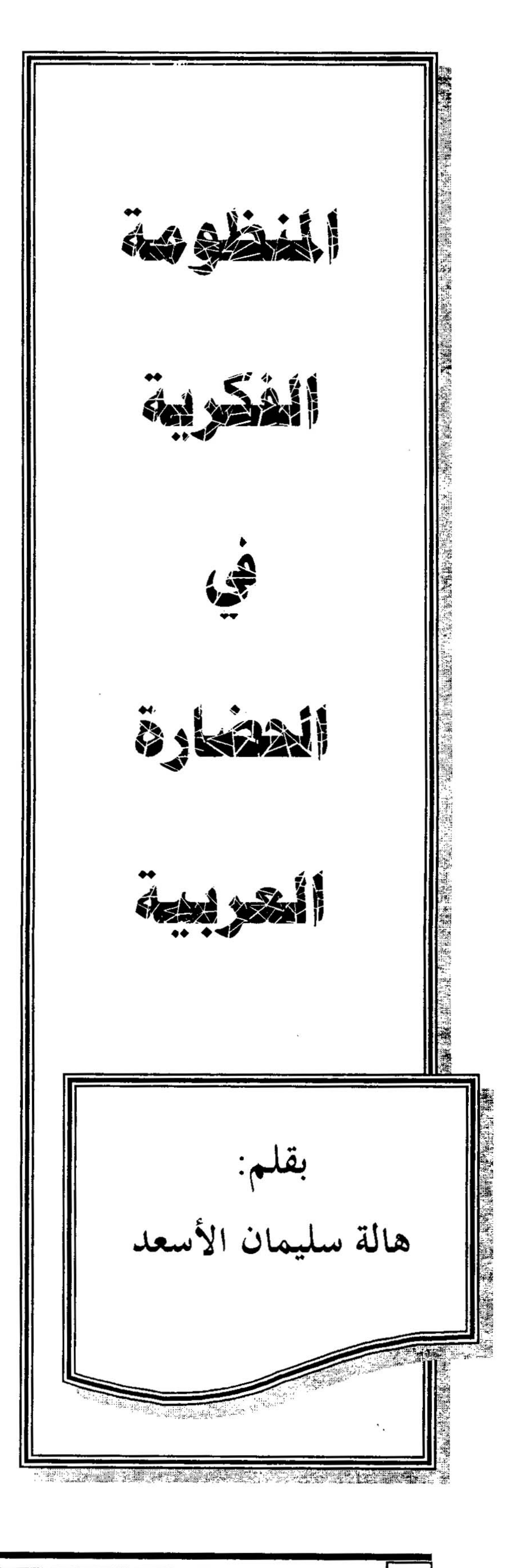





والياســـمينُ افـــترّ فـــي حقـــلها
وطـــار مـــنه العقـــل ثـــم اهـــتدى
وجـــــنيّةُ الـــبحر وأتـــباعها
لمحـــتهم فـــي بحـــرها حُسَّـــدا
مـــن مـــسّ فـــي أحلامـــه شـــعرها
ســـار بعيـــداً عـــن طـــريق الـــرّدى
يـــا بيـــتها المنســـوج مـــن لؤلـــؤ
دُمْ فـــي حيـــاتي هاديـــاً مرشـــدا
فـــي كـــلِّ ركـــنٍ مـــن تلاويـــنه
يفتـــتح الـــنجمُ لـــه منـــتدى
إن كـــنتُ فـــي كعبـــتها هائمـــاً
لغيـــر وجـــه الله لـــن أســـجدا
زوّدنـــي الوهـــمُ بأطيافـــه
وسلســـل الكوثـــر لـــي مـــوردا
لـــم أعشـــقِ الأنـــواءَ فـــي وجهـــا
لا. بـــل عشـــقتُ الأصـــلَ والمحـــتدا
رفِّـــي مـــع الأنســـام عصـــفورةً
وبـــاركي الفجـــرَ لـــنا موعـــدا
لـــو رحـــتُ أستصـــرخ مـــن لوعـــتي
رجعـــتُ لا أحمـــل غيـــرَ الصـــدى
مهمـــا زرعـــتُ الحُـــبَّ فـــي بيـــدري
غيـــرَ فـــلولِ الشـــوكِ لـــن أحصـــدا
فلأجعـــلِ الأشـــعار لـــي صـــاحباً
ولأتَّخـــذ مـــن كتـــبي مـــرقدا







لا شك أن التعريف بالفكر الإنساني هو المدخل إلى الحضارة الإنسانية التي ترتكز في عمادها الأول على الفكر الإنساني المنتج والمفكر.

والفكر إذاً هو العلاقة المنتجة بين العقل السليم وقراءة الحدث وتحليل أبعاده بإيجابية أو سلبية سواءً بشكل نقدي أم بشكل قراءة حقيقية للحدث، والمعرفة بالجوهر بشكل متجرِّد عن كل المؤثرات الخارجية، ليعطي صورة جلية ولتقييم صحيح، وقد يدفع ذلك إلى الدخول في صناعة الحدث أو نقده.

وكما هو معروف أن أبو الفلسفة (أرسطو) الذي يعتبر عبر التاريخ أول من وضع ركيزة ما يدعى بالنظام الثقافي في الغرب معتمداً بدايةً على أن العقل يجب أن يدرس في ماهيته ببديهياته وبالمقدمات لينتج ما يجب إثباته بالبرهان والبينة بشكلٍ منفتح وغير محدود لنصل بالتالي إلى بديهيات يتقبلها العقل كما هي، ليست لأنها هكذا يتقبلها بتسليم ودون محاكمة وإنما جاء ذلك نتيجة محاكمات ودراسات حثيثة سبقت، أدّت بالتالي إلى أن يسلّم العقل بهذه البديهية.

لكن العرب حقيقةً هم أول من سجل لهم التاريخ استعمال العقل والمنطق، وهم أول من عمل على تمكين العقل في تطور الفلسفة الحضاري العربي، لكن سوء النقل وعدم التدوين المباشر لذلك والإعلام المحكي والمباشر - إن صحّ التعبير - هو من يرفع من شأن المفكّر أو يهدمه، وهذا ليس إقلالاً من شأن أرسطو إنما جلوّ الحقيقة عن فلسفة

وفكر عربي كانت هذه الشعوب هي التي بدأت به، وهناك الكثير من الرقم التاريخية سواءً في بلاد ما بين النهرين أو عند الفراعنة أو في مختلف بقاع الأرض العربية هذا السجل الذي يدل على بداية الفكر الذي هو من هذا النوع عند العرب، إضافةً إلى ما لم يسجل، وقد تداوله الناس تواتراً بل وسلّم في بديهيات الفكر الإجتماعي، كما أنهم قد نقلوا أشعارهم شأنهم شأن بقية الأمم من جيلٍ إلى جيل عبر الرواية الشفوية وقد دُوِّن البعض الآخر وسلط الضوء على بعضها ولم يسلط على آخر، وهنا نأتي بمثالاً إذ كان يقال عن أهل الحيرة الذين كانوا يُعنون بتدوين كتبهم وأخبارهم وأنسابهم في كتبٍ ومخطوطات حتى أن النعمان قد أمر بنسخ أشعار العرب وبعد ذلك جمعت ودفنت في قصره حيث قضت.

وهذا إن صحّ التعبير أو التسمية شيءٌ من الصحافة المكتوبة، فتدوين الأخبار وتدوين الفكر والثقافة ليقرأها العامة إشارةً إلى أن العرب كانوا الأوائل في الصحافة، وعندما جاء الإسلام بثورة في الفكر والعلم الذي يُكتشف من جنباته إلى يومنا هذا، وجاء ثورةً في علم الاجتماع والقانون وكل مناحي الحياة التي كان للبشرية من خلال الإسلام نقطة تحول رهيبة أرقت بالبشرية على منحاً حضاري فكري، فكان تحولاً واضحاً في منظومة الفكر البشري الحضاري، ثم نقلوا ذلك عبر الفتوحات الإسلامية الكبرى إلى باقي بقاع العالم ونشروا العلوم الإنسانية والدين والفقه وحملوها إلى باقي الشعوب، وحثّوا علماء الشعوب الأخرى إلى السعي لفكرٍ منفتح وفتحوا الأفق للعقل بالتفكير والتعقّل لإنتاج حضاراتٍ إنسانية تناسب التطور الإنساني، واكتشفوا قوانين الطبيعة، وقاموا بدراسة ظواهرها، فقد كان العصر العباسي بداية النهضة الفكرية بصيغتها الجديدة وانتقل الفكر وتعاطيه إلى المنابر الدينية والحلقات فاختص بالفقه والتفسير والعلوم القرآنية التي ينضوي تحت جناحها الكم الأكبر من العلم والفكر، وبالفتوحات وتواصل الشعوب ثم التواصل العلمي، فاختلط الفكر الشرقي مع الغربي، واختلط ما أبدعه العرب والإسلام مع بدائع أفلاطون وأرسطو وحكمة وفلسفة اليونان، وكان من المفروض أن يفرز ذلك رقي منقطع التنظير في المسائل الفكرية إذ حدث جزءاً منه في حقبةٍ زمنيةٍ، لكنه أدى إلى بعض الفوضى والاختلاط، فأغرق المثقف عالمياً في فوضى الفكر.

ومن الملاحظ أن الأمور السياسية تأتي على تبعاتٍ بالفكر والعلم من كل جنباته، فقد أدت الاحتلالات وضعف الحالة السياسية إلى تأخر الفكر العربي مما أدى إلى تأخر العرب إلى ما نحن عليه.

وهنا لا بد من أن نشير إلى ضرورة نشأة ثورة ثقافية فكرية أو منظومة فكرية تحدد المراد منها في الفكر العربي مع هذا الكم من المثقفين والروّاد والنخبة، لتقود العالم العربي إلى هوية ثقافية متحررة مستفيدة من التراث الزاخر فيكون لها بذلك مستقبل زاهر بإذن الله..

الوطن والطبيعة في ديوان "أغنيات قلب" للشاعرة مقبولة الشلق

بقلم:
أحمد سعيد هواش

من خلال قراءة ديوان "أغنيات قلب" للشاعرة مقبولة الشلق نجد حب الوطن والطبيعة ظاهرين في شعرها الرصين الذي ضمه الديوان، وأول ما يطالعنا في الديوان، قصيدتها "وجد" إذ قالت منها:

أنا من أهوى، وفي قلبي أوار
دائم الثورات، جيّاش السعيرِ
قد رضعت الحب من أم روت لي
قصص الوجد على مرّ العصورِ
علَّمتني أن للأوطان حقاً
في حياتي وفؤادي وضميري

تلك الأبيات هي فاتحة الديوان، وكذلك هي فاتحة شعرها الوطني وشعارها الذي سارت عليه في حياتها.

وكان قصيدتها الثانية اللاحقة مباشرة للأولى "أحبكِ" أذ جاءت في ستة وعشرين بيتاً بدأتها بكلمة "أُحبُكِ" وهي تعني الوطن، وهو جدير بالحب.. فقالت:

أحبُّكِ مذ أبصرتُ، والحب يعظم
لغيرك لا أشدو، ولا أترنمُ
أحبكِ يا أبهى بلاد رأيتها
وما لا ترى عيني، وما الخلق يعلمُ

إن الفيض من الحب للوطن وللبلاد ينبع من قلب شاعرة مفعمة بحب بلادها، إنه حب صوفي لوطنها لا تشارك فيه أي حبيب.. حب سام مقدس، تعتز به الشاعرة وتنعم ما دامت حية تعيش على تراب بلادها التي أحبتها:

بحـــبكِ أسمو ما حييت على الورى

بحـــبكِ أحيـــا باعـــتزاز وأنعـــمُ

وحُـــبكِ فـــي قلـــبي من الله شعلة

تـــؤج حماســـاً يعـــربياً وتقـــرمُ

وحـــبكِ أهـــدى لـــلفؤاد هديـــةً

إبـــاءً عـــلى بغـــي العـــداة يدمـــدمُ

إنهـــا وليفـــة تـــؤرح فـــي حب البلاد والأوطان، يؤجج أوار حبها العاطفة الصادقة، والشاعرية الوقادة، والحب الذي يرافقه الإباء والرفعة لعزة الوطن وحفظه من أعداء الوطن:

أحـــبكِ، لا أرضـــى غاصـــباً

أحـــبكِ، لا أرضـــى لحقك يهضمْ

وكـــل الأمـــاني، أن أراك عزيزة

وشـــعبك فـــي أمجـــاده ينعم

وكمـــا أحـــبت الشاعرة مقبولة الشلق بلادهـــا، فقـــد أحـــبت البلاد العربية أيضاً، لقد أحـــبت لبـــنان، القطر الجميل المجاور لبلادها الحبيـــبة ســـورية، أحبت الطبيعة الجميلة في انطـــلياس، أحـــبت الميـــاه الدافقة، والطبيعة الســـاحرة، وهـــي الشاعرة.. فلنسمعها تقص علينـــا تـــلك الجلســـة الشـــاعرية "أمسية في انطلياس" إذ قالت:

تـوافدنـــا إلى روض يضـــم النـــبع نشـــوانا

يمـــوج الحســـن في صفصافة زهواً بلقيانا

ويســـدل مـــن غدائـــره غـــلالات وأروانـــا

تلامســـنا بتحـــنان وتنســـي القـــلب أشجانا

عرائشـــه تريـــنا الكـــون أزهـــاراً وأغصانا

ثـــريات منمـــنمة وأطواقـــاً وتيجانـــا

ويمتزج حب الوطن والطبيعة معاً في قصـــيدة "فرحة الشام" التي أهدتها إلى الشاعر القـــروي فـــي آب ١٩٥٨ بمناسبة عودته إلى وطنه بعد اغترابه الطويل فقالت:

مـــاجت دمشـــق بنشـــوة وفخار

هل سجّلت نصراً على الأقدار..؟

وجـــرى يفيـــض عذوبة وهناءة

بـــردى يفاخـــر أعظـــم الأنهار

وتـــتابع الشاعرة وصف فرحة الشام حاضـــرة بـــني أمية، بقدوم ابنها البار الشاعر القروي المدنف بحب الشام والعرب فقالت:

فـــالحور والصفصاف في زهو الهوى

والـــورد بشّـــر عاطـــرَ الأزهـــار

فـــتأرجحتْ ريـــح الـــرياض وصفّقت

بالياســـمين الفـــاتن المعطـــار

ثـــم تصـــف الشـــاعرة مقبولة الشلق الصوت العربي، الذي صدح في المهجر مشيداً بأمته العربية، إنه الشاعر القروي فقالت:

وشـــدا بســـاحر صـــوته مترنماً

بيـــن المغـــاني صـــادحُ الأطيار

شـــمخت روابي قاسيون وأعلنت

عـــبر الفضـــاء بأســـعد الأخبار

سكرتْ سهولُ القمح في حوراننا

فهل ارتوت خمراً بلا أمطار

وهل تنسى الشام أبناءها البررة؟ ومن أحق بالحب من الشاعر القروي الذي رفع راية العروبة عالية في المهجر!

في الشام عيدٌ بالمباهج حافلٌ

أم ذاك عرسٌ في دنى الأسحار..؟

وهل ينسى جبل العرب إشادة الشاعر القروي ببطولة بني معروف وشجاعة سلطان باشا الأطرش، إنه الجبل الأشم الوفي!!

فأجابني الجبل الأشم وضحكةً

من غيده كاللحن في الأوتار

الشاعر القروي عاد لأهله

عاد الوفي إلى حمى الأحرار

وما أجمل أن تتوحد الأمة العربية، متمثلة بالقطرين العربيين الشقيقين مصر وسورية في أول وحدة عربية في العصر الحديث، في الثاني والعشرين من شباط لعام ١٩٥٨م، فقالت من قصيدة "وحدة الأوطان" التي ألقتها في قصر الضيافة في الثالث والعشرين من شهر شباط عام ١٩٥٨ أمام الرئيس جمال عبد الناصر فقالت:

نورٌ يضيء الشرق في أرجائه

فكأنه نورٌ من الرحمن

وهكذا تستمر الشاعرة بالفرح إلى أن قالت واصفة عناق الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر اللذين مثلا تلاقي سورية ومصر:

لما تعانق شكرنا و جمالنا

فكأنما يتعانق الشعبانِ

صدعا بأمنية القلوب وأعلنا

رغم المكائد وحدة الأوطان

وفي الأحزان تفيض العواطف الجياشة في حب الوطن، إنه الحب الأنثوي، الذي حملته الشاعرة مقبولة الشلق إلى عاصفة العروبة دمشق، عندما انفصمت عرى الوحدة الوليدة في أيلول ١٩٦٢ م فقالت:

فيحاء كم ذاقت ملايين من

العيش الكريم، غمرتهم بهناءِ

أَلِّفت ما بين الأحبة بعدما

طال الجوى، أسعدتهم بلقاءِ

فضممتهم ضم الرؤوم لصدرها

أطفالها في نشوة وصفاء

ثم تشير الشاعرة إلى محبي دمشق، إلى الأبناء البررة الذين فدوها بأرواحهم:

عشاقها رفعوا لواء نضالهم

متسلحين بقوة ومضاءِ

قد صمّموا أن تستعيد نموّها

وتكون أعظم دوحة شمّاءِ

وستبقى دمشق – رغم ثخن الجراح – عصية على الطامعين، شوكة في عيون الحاقدين، إنها المنارة الساطعة التي يهتدي بنورها الأحرار الأماجد..




من دفاتر كانون

شعر: أسامة معلا

دعيـــــني أنهـــل مـــن عيـــنيك أشـــعاري
أنـــا المحاصـــر بيـــن الثـــلج والـــنار

كـــانون.. يـــلهث.. فـــوق الـــثغر يـــا نغمـــاً
أمـــا حنـــنتِ؟ إلى قلـــبي وأســـراري

أنفقـــتُ عمـــريَ للـــنجماتِ.. أجمعهـــا
واليـــوم أحيـــا بـــلا نجـــمٍ وأقمـــارِ

حـــبٌ لعيـــنيك.. أبكيـــه وأعـــبُده
مـــثل الجمـــاداتِ أحييهـــا بأفكـــاري

ألبســـت عـــري الفاتـــنات هـــوى
وقـــد كســـيت هـــوى مـــن وجهـــك العـــاري

والصَّـــدرُ كـــان جميـــلاً فـــي تمـــنُّعه
فكيـــف ألجـــم عـــن نهديـــك إعصـــاري..؟

هـــنا العـــبير.. مقيـــمٌ فـــي مواطـــنه..
قـــد ضـــمن العطِـــرُ فـــي ثغـــري وأشـــعاري






٢١٠-٢٨٥هـ

٨٥٦-٨٩٨ م

وكتابه

التعازي و المراثي

شاهد عصر

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

عصر المبرد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي:

قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء:

"المبرد كان إمام العربية ببغداد وإليه انتهى علمها بعد طبقة الجرميِّ و المازني، وكان حسنَ المحاضرة فصيحاً بليغاً، مليح الأخبار ثقة فيما يرويه، كثير النوادر فيه ظرافة ولباقة".

إنه المبرد الذي ولد بالبصرة في العاشر من ذي الحجة سنة ٢١٠ هـ ٢٥ آذار ٨٢٦ م ، و امتدت حياته ثلاثة أرباع قرن، عاصر خلالها أحد عشر خليفة من خلفاء بني العباس، أولهم المأمون وأخرهم المعتضد، وقد عرفت الخلافة العباسية في عهود هؤلاء الخلفاء وخاصة المتوكل اضطرابات ومحناً كان لها أثر بعيد في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية للعصر.

وعظم أمر بعضها مما أدى إلى الثورات كالقرامطة والزنج، وأدت هذه الثورات إلى إراقة الدماء مما أدى ذلك إلى ازدهار فن الرثاء في هذا العصر، كذلك الحالة الاقتصادية لم تكن أحسن حالاً، وهي جزء من الحالة السياسية الغير متزنة، فالخلافة بدأ في جسمها يدب الوهن، وعيوب الحاكمين بدأت تستفحل فصار عامة الناس يتخبطون في البؤس والحرمان والشقاء.

صارت هوة واسعة بين الحاكمين والمحكومين، قال ياقوت:

"إن المتوكل أنفق في بناء قصوره الثلاثة (العروس والغريب والصبح) مئتي وأربعة وتسعين ألف درهم، وأم المستعين نسجت بساطاً من الجواهر قيمته مئة وثلاثون مليوناً من الدنانير"

وقال ابن الأثير في الكامل:

"عثر على كنز لأم المعتز بعد مقتله لا يمكن إحصاء قيمته، وهكذا قلد الوزراء وكبار الموظفين والمحظوظون من الناس الخلفاء في مظاهر الترف والبذخ فورد أن ابن الفرات كان يأكل بملاعق من بلور كل لقمة بملعقة جديدة، وورد أن نساءهم كانت ترمي أحذيتها كل عشرة أيام بما فيها من مجوهرات، هذا التنافس في مظاهر الترف والبذخ نتج عنه انعدام الشعور بالمسؤولية العامة عند السواد الأعظم من القائمين على أمور الدولة والمسيرين لشؤونها الإدارية والعسكرية، وأصبحت مناصب الحكم سلماً لبلوغ المآرب الشخصية، وراجت تجارة الإرشاد" .

وسيطر الجنود الأتراك على الخلافة وأمسكوا قهراً بزمامها، ولم يحاربوا عن عقيدة يوماً، و إنما عن جشع وطمع في المال، فصار بعض الخلفاء يفرغون خزينة الدولة عليهم إرضاء لهم.

وكان هذا الترف والتبذير على حساب الطبقات الشعبية التي كانت تتجرع مرارة الفقر والحرمان، هذا كله أدى للثورات مثل ثورة الزنج (العبيد) وقد شهد المبرّد هذه الثورة وروى في كتابه قصيدة لأبي ناظرة السدوسي يرثي بها البصرة وحالها من جراء ما حل بها من فتنة الزنج، وهذا بدوره أدى إلى قسم المجتمع إلى قسمين خاصة وعامة، وكان الثراء نصيب الطائفة الأولى التي ضمت الخلفاء والأمراء والعمال والولاة وتارة الجيوش ومن لاذ بهم.

أما الطبقة الثانية فكانت تضم عامة الشعب، وكانت ضروباً من الفقر والجهل والشقاء.

ولما تفسخت الطبقة الأولى من كثرة بذخها وترفها شاع فيها الاستهتار وانتشر المجون وعرف الإلحاد ونشطت حركة الزندقة والشعوبية.

أما العلماء والأدباء فانقسموا إلى فئتين الأولى كانت محظوظة فاستطاعوا أن يدلفوا إلى القصور، أما الثانية فكانت محرومة وصاروا يدرسون لقاء لقيمات تكفيهم وبعضهم كانت تأتيه هدية من فاضل كريم ومنهم كان صاحبنا "المبرّد" رحمه الله تعالى.

ولكن وإن كان للفساد السياسي الذي أشرنا إليه آثار سلبية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية، كان له آثار إيجابية على الحياة الفكرية والأدبية، لأن بعض الخلفاء والوزراء والولاة تنافسوا في اجتذاب الأدباء والعلماء، وإغداق الأموال عليهم، فنشطت الحركة الأدبية والعلمية نشاطاً لم تعرف له سابقة ولا لاحقة في تاريخ الحضارة الإسلامية، حتى عُدّ القرن الثالث عند كثير من المؤرخين أزهى قرون الحضارة الإسلامية.

ففي هذا العصر تمت الترجمات من علوم الأمم الأخرى، وازدهر علم الرواية والنحو واللغة والأدب، و تأليف كتب التاريخ والجغرافيا وظهر فيه أئمة الحديث والفلاسفة وعمالقة الشعر، وكان المبرد من أئمة هذا العصر.

نشأة المبرد :

ولد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس المعروف بالمبرد في البصرة ونسبه إلى ثُمالة، وهي حي من الأزد ، لذلك يقال له – الثماليّ الأزدي – وعرف بالمبرد وهو لقب اشتهر به على ما ذكره ياقوت والسيوطي أن المازني و– هو شيخ المبرد – لما صنف كتاب الألف واللام أخذ يسأله عن دقيقه وعويصه، فأجابه عن كل ما سأله عنه بأحسن جواب، فقال له المازني قم فأنت – المبرد – أي المثبت للحق.

لم تذكر المصادر شيئاً عن نشأته في صباه فهي فترة مهمة لكنها مبهمة، و لكن مما لا شك فيه أنه ظل يتردد خلالها على مجالس العلماء، و خاصة منهم النُحاة والأدباء، وخاصة أن البصرة كانت يومذاك تعجُّ بكبار العلماء من كل فن.

شيوخه:

من أهم شيوخه بالبصرة أبو عثمان المازني، قال عنه المبرد:

"لم يكن أحد بعد سيبويه أعلم من أبي عثمان بالنحو والجرمي، وعنهما أخذ النحو".

أما مشايخه في اللغة والأدب و رواية الشعر فكان على رأسهم الرياشي والترزي والسجستاني والمدائني، مع أنه تأثر كثيرا بأسلوب المدائني فلذلك يروي عنه كثيراً في الكامل والتعازي والمراثي.

ومع أن البصرة كانت مهداً لكثير من العلوم إلا أن المبرد لم يقترب منها، فبقي مولعاً بالثقافة العربية الصريحة من نحو ولغة وأدب ونوادر وأخبار، وبقي ملازماً لصحبة العلماء نحو ثلاثين سنة وهو يلم من علومهم ليبلغ ما بلغوه، بعد ذلك صار يدرس بالبصرة.

وفي سنة ٢٤٦هـ انتقل المبرد من البصرة إلى سُرَّ من رأى بطلب من الخليفة المتوكل ليحكمه في آية قرآنية، اختلف هو ووزيره الفتح بن خاقان في قراءتها. وبقي فيها إلى مصرع المتوكل ووزيره، فرحل إلى بغداد، ودّرس في مسجدها وكثرت طلابه حوله واشتهر. مما أدى إلى حقد البعض عليه ومنهم ثعلب وكان قبل المبرد كبير شيوخ بغداد ولكن نافسه المبرد في ذلك فحصل العداء بينهما وصار مضرب المثل وقيل فيه الأشعار. وبرز المبرد على ثعلب لأن ثعلبا كان مذهبه مذهب المعلمين، أما المبرد فكان صاحب عبارة حسنة، وإشارة حلوة، و لسان فصيح، وبيان ظاهر، كما قال الصولي يصفه:

"وكان حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر، وكان من العلم وغزارة الحفظ،

وحسن الإشارة وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة، وكرم العشرة، وبلاغة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة وجودة الخط، وصحة القريحة، وقرب الإفهام، ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه.

ولذلك كثر الناس حوله، وذاعت شهرته، حتى أخذ يتجاذبه أهل الفضل والعلم والجاه كقاضي القضاة اسماعيل بن اسحاق الأزدي توفي ٢٨٢هـ الذي حزن عليه المبرد حزناً شديداً عند وفاته.

تلامذته:

بقي المبرد يدرس في بغداد زهاء أربعين سنة، فتخرج عليه خلق كثير من فطاحل العلماء ولعل أشهرهم أبو اسحاق الزجاج، والأخفش الصغير، وابن درستويه، وابن السراج والصولي، و نفطويه وغيرهم.

وفاته:

توفي المبرد في سنة ٢٨٥هـ في آخر ذي الحجة - ٨٩٨ م وعاش خمسا وسبعين سنة.

مؤلفاته:

خلف المبرد للمكتبة العربية عشرات الكتب، أحصاها ياقوت في معجم الأدباء وابن النديم وبروكلمان فبلغت خمسين كتاباً، وقد أوردها مجموعة الدكتور رمضان عبد التواب في مقدمة "رسالة البلاغة" للمبرد التي حققها. منها الكامل، وقد طبع والفاضلِ ونسب عدنان وقحطان والمقتضب والبلاغة والمذكر والمؤنث والروضة والمقرب على ما ذكر في الأعلام والتعازي والمراثي.

كتاب التعازي والمراثي :

كما ذكرت أن كتاب التعازي والمراثي للمبرد يعد ديواناً في بابه، وفريداً في نوعه، وقد وضعه سنة ٢٨٢هـ ويتضمن مواضيع في العزاء والرثاء وساق فيه مجموعة من عيون المراثي التي فاضت بها قرائح الفحول من الشعراء الجاهليين والإسلاميين الذين سبقوه أو عاصروه، وساق فيه مواعظ وخطباً وأقوالاً مأثورة، ووصايا بعضها تؤثر عن أهل الدين، وبعضها من أهل الأدب. وسبب تأليفه للكتاب هو حزنه على وفاة صديقه قاضي القضاة إسماعيل بن اسحاق الأزدي الذي توفي ٢٨٢هـ، وكان صديقه الحميم وقد خسر بوفاته فضله وعلمه فقد كان فقيها عالماً، قد صنف عدة كتب في مذهب الإمام مالك وعدة كتب في التفسير وعلوم القرآن وكان من بيت علم وفقه وحديث فكان علماً شامخاً في العراق، وهذا الحزن العميق أثر به فمضى يعزي نفسه بتأليف كتاب التعازي والمراثي، وقد صرح بذلك المبرد في مقدمة كتابه، وجاء

كتابه جيداً بانتقاءه للنصوص الأدبية الرفيعة، وخاصة أن الرثاء من أهم الأغراض الشعرية وأشدها وقعاً في النفوس، لأن الذي يرثي يقول وكبده يحترق فيأتي كلامه صادقاً.

هذا هو السبب الرئيسي لتأليفه للكتاب، ولكن هناك أسباباً أخرى منها ما دعته إليه من إراقة الدماء إثر الفتن في الظروف السياسية التي تكلمت عنها في العصر العباسي. كل هذا أدى إلى ازدهار أدب الرثاء، ودعت شيوخ الأدب والرواية إلى أن يفردوا له التآليف الخاصة، أو أن يخصصوا له فصولاً مهمة من كتبهم الأدبية، فقد صنف أبو الحسن المدائني كتاب التعازي، وألف المرزباني كتاب المراثي، وابن قتيبة خصص فصولاً في عيون الأخبار كما فعل ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد، لذلك من الطبيعي أن ترتاح نفوس البشر في عصور القتل والفتن وإراقة الدماء للتعازي والمراثي.

مصادر الكتاب :

مصادر المبرد في كتابه ما رواه عن شيوخه في هذا الفن خاصة عن أبي الحسن المدائني الذي ألف قبله كتاب التعازي وقد أعجب المبرد به إعجاباً كبيراً ونقل عنه، ومن مصادره ما سمعه من معاصريه من ذوي الحلم والرأي والفضل مما يتصل بأدب الرثاء والعزاء .

قيمة الكتاب :

رأيت من المفيد أن أختم بحثي هذا ببعض أطراف قيمة الكتاب ومنها:

أنه كتاب يبحث موضوعاً واحداً وهو العزاء والرثاء وخاصة أن نصوصه الشعرية والنثرية منتقاة بذوق أدبي رفيع.

هو كتاب يعزي ويسلي المصاب.

موضوع التعازي والمراثي لم يعد يهم الأديب وحده، ولا المتعشق للأدب أو المعزى فحسب، إنما أصبح يهم أصحاب الدراسات الإنسانية الأخرى، كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع ليخدمهم على كشف بعض جوانب النفس الإنسانية في بيئة معينة وزمان معين.

وللكتاب قيمة تاريخية، فهو يروي أخباراً وقعت قبله أو حدثه بها من شاهدها أو عاصرها هو بنفسه، فهذه الأخبار تعيننا على رصد كثير من جوانب المجتمع العربي المسلم في تلك العصور.

وينفرد كتاب التعازي والمراثي بقيمة أدبية بما تفرد به من نصوص شعرية ونثرية لم نجدها في غيره من المراجع فيصبح الكتاب مرجعاً لكثير من النصوص النفيسة التي ضاعت أصولها فلم تصلنا.




يا زمان الوصل

شعر : لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى — يا زمانَ الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلُما — في الكرى أو خلسةَ المختلسِ

* * *

إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المُنى — ننقلُ الخطوَ على ما ترسمُ
زُمَرا بين فُرادى وثُنا — مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
والحيا قد جَلَّلَ الروضَ سنا — فثغورُ الزهرِ فيه تبسِمُ

وروى النعمانُ عن ماءِ السما — كيفَ يَروْي مالكٌ عن أنسِ
فكساه الحسنُ ثوبا مُعلَما — يزدَهي منهُ بأبهى ملبَسِ

* * *

في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى — بالدجى لولا شموسُ الغُررِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهَوى — مستقيمَ السيرِ سعدَ الأثرِ
وطَرٌ ما فيه من عيب سوى — أنه مرَّ كلمحِ البصرِ

حينَ لذَّ النومُ شيئاً أو كما — هجمَ الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارت الشهبُ بنا أو ربما — أثرت فينا عيونُ النرجسِ

* * *

أي شيءٍ لامرئٍ قد خلَصَا — فيكونُ الروضُ قد مُكِّنَ فيه
تنهبُ الأزهارُ فيه الفُرَصا — أمِنت مِن مكْره ما تتقّيه
فإذا الماءُ تناجى والحصا — وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه

تُبصرُ الوردَ غيوراً بَرِما — يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآسَ لبيباً فهِما — يسرقُ السمعَ بأذْنَيْ فرَسِ

* * *






يـا أُهَيْـلَ الحي من وادي الغضا   وبقلــبي مســكنٌ أنــتمْ بــه
ضاقَ عن وجدي بِكم رحبُ الفضا   لا أبــالِي شــرقَهُ مــن غــربهِ
فــأعيدوا عَهــدَ أُنْــسٍ قد مَضى   تُعْــتِقوا عــبدَكمْ مــن كــرْبَهِ

واتقــوا الله، وأَحْيُــوا مُغْــرما   يتلاشَــى نَفَســاً فــي نَفَــس
حَـبَسَ القــلبَ عــليكم كَــرَما   أفترضَــونَ عَفَــاءَ الحُــبُسِ

* * *

وبقلــبي مــنكمُ مُقْــتَرِبُ   بأَحــاديث المُــنى وهــو بعيــدْ
قمــرٌ أَطــلعَ مــنه المَغْــرِبُ   شــقوَةَ المُضْــنَى بــه وهو سعيدْ
قــد تســاوى محســنٌ أو مذنَبُ   فَــي هــواه بيــن وَعْــدٍ ووعيدْ

أَحــورُ المقــلة معســولُ الـلّمى   جــالَ فــي الــنفسِ مجالَ النَّفَسِ
ســدّدَ الســهمَ فأَصــمى إِذ رَمى   بفــؤادي نبــلةَ المُفْــترِسِ

* * *

إن يكــن جــارَ وخــابَ الأَمــلُ   ففــؤادُ الصــب بالشــوقِ يذوبْ
فَهــو للــنفسِ حــبيبٌ أَولُ   ليــس فــي الحبِّ لمحبوبَ ذنوبْ
أمــرُهُ مُعْــتَمَلٌ مُمتَــثَل   فــي ضــلوعٍ قــد بَــراها وقلوبْ

حكّــمَ الــلحظَ بــه فاحــتكما   لــم يُــراقبْ فــي ضعاف الأَنفسِ
يُنصِــفُ المظــلومَ ممَّــن ظَــلَما   ويُجــازي الــبرَّ مــنها والمُســي

* * *

مــا لقلــبي كــلما هــبَّتْ صَــبا   عــادَه عيــدٌ مــن الشــوقِ جديدْ
جَــلبَ الهــمَّ لــه والوَصَــبا   فهــو للأَشــجان فــي جهدٍ جَهيد
كــان فــي الــلَّوْحِ لــه مكتَتَبا   قولــه: إِن عذابــي لشَــديد

لاعــجٌ فــي أَضــلعي قد أُضرما   فهــي نــارٌ فــي هَشــيمِ اليَبَس
لــم يــدَعْ فــي مُهجــتي إِلا ذَمَا   كــبقاءِ الصُّــبح بعــد الغَــلسِ